

بمءء بعنوء

الاءءاء الاءءماءى فى الاءفسىر فى العصر الءءىء

إءءاء الءءءور/ عمر عبء العزىز بورىنى
أسءاء الاءفسىر المساعء بءامعة طىبة
المملكة العربىة السعوءىة – المءىنة المنورة

الملءص

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وبعد :

فإن هذا البحث (الاتجاه الاجتماعي في التفسير في العصر الحديث) يهدف إلى وضع مفهوم دقيق للاتجاه الاجتماعي في التفسير ، خاصة بعد اختلاف الباحثين المعاصرين في تحديد الاصطلاح الذي ينطبق عليه هذا الاتجاه ، وبيان مميزات المدرسة الاجتماعية في التفسير في العصر الحديث ، والوقوف على نشأة هذا الاتجاه ودواعيه ، وتحديد أهم أعلام المفسرين الذين سلكوا هذا الاتجاه في تفاسيرهم ، وبيان القضايا الكبرى التي اهتم بها أصحاب هذا الاتجاه في تفاسيرهم.

فُسمت هذه الدراسة إلى مبحثين بالإضافة إلى المقدمة والخاتمة . تناول المبحث الأول : الاتجاه الاجتماعي في التفسير (مفهومه ونشأته ودواعيه وأعلامه) . واشتمل على أربعة مطالب هي : المطلب الأول : مفهوم الاتجاه الاجتماعي في التفسير . المطلب الثاني : نشأة الاتجاه الاجتماعي في التفسير ودواعيه . المطلب الثالث : هل في القرآن الكريم قواعد اجتماعية ؟ . المطلب الرابع : أعلام الاتجاه الاجتماعي في التفسير .

أما المبحث الثاني فسلط الضوء على : موضوعات التفسير الاجتماعي ونماذج من كتب التفسير . اشتمل على ستة مطالب هي : المطلب الأول : الحرية . المطلب الثاني : التحذير من البدع والشبهات والعقائد الفاسدة . المطلب الثالث : الاهتمام بمشكلات السياسة ونظام الحكم والدعوة إلى جهاد الأعداء المعتدين . المطلب الرابع : الاهتمام بذكر السنن الأخلاقية والتحذير من الرذيلة . المطلب الخامس : الاهتمام بالقضايا الاقتصادية . المطلب السادس : الاهتمام بقضايا المرأة . ثم أودعت الخاتمة أهم النتائج التي توصلت إليها في البحث .

وقد اتبع الباحث المنهج الوصفي التحليلي ، حيث قام باستقراء أهم كتب التفسير التي سلكت هذا الاتجاه ، وقام باستنباط وتحليل أهم مميزات هذا الاتجاه في التفسير ، مع ذكر نماذج تطبيقية .

خلصت الدراسة إلى مجموعة من النتائج ، من أهمها : ظهر الاتجاه الاجتماعي في التفسير في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي ، وكان من أبرز دواعي ظهوره الهجمة الشرسة

من أعداء الإسلام على الأمة ، والتردي الاجتماعي والأخلاقي والتعليمي للبلاد الإسلامية .
لقد كشفت المدرسة الاجتماعية عن بلاغة القرآن وإعجازه ، وبيّنت ما فيه من
سنن كونية ، ونظم اجتماعية ، وعالجت مشكلات المجتمع ، وردّت الشبهات والمطاعن التي
وجّهها أعداء الإسلام للقرآن ، وأظهرت للعالم أن القرآن صالح لكل زمان ومكان ، بما فيه
من سنن ، ونظم ، وتشريعات .
والله الموفق .

المقدمة

الحمد لله حمداً كثيراً ، والصلاة والسلام على نبينا مُحَمَّد المبعوث رحمةً للعالمين مبشراً
ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، أما بعد :

فقد اعتنى المفسرون المتقدِّمون - على اختلاف مناهجهم واتجاهاتهم - بالقرآن الكريم عناية كبيرة ، من حيث تجليتهم لمعانيه ، ووقوفهم عند مرامييه ، واستخلاص ما في آياته من الحكمة والبيان ، وإبراز ما في نظمه من الإعجاز والإتقان ، فأفرغوا فيه جهدهم ، وبذلوا فيه وسعهم ، فلبّوا بذلك حاجاتهم ، وحلّوا بها مشكلاتهم .

وظلَّ الأمر كذلك إلى أن جاء العصر الحديث ، الذي يبدأ مع نهاية القرن التاسع عشر الميلادي ، وبداية القرن العشرين ، هذا العصر الذي شهد انتكاسات للعالم العربي والإسلامي ، حيث كان محطَّ أنظار الدول الاستعمارية الأوروبية ، وشهدت هذه الفترة وما بعدها هزائم متوالية للعالم العربي والإسلامي ، من قبل الدول الاستعمارية ، وتخلّف المسلمون عن ركب الحضارة والتقدم والعلم ، وتعرّض المجتمع الإسلامي لغزو فكري وثقافي وأخلاقي وإعلامي ، واستعمرت جميع البلدان الإسلامية بعد الحرب العالمية الأولى ، وانتشرت فيها الأفكار والمذاهب الجاهلية .

وفي ظلّ التقدُّم السريع الشامل في الغرب ، نتيجة الثورة الصناعية ، والثورات الاجتماعية والسياسية ، فإنَّ مسلمي البلدان الإسلامية كانوا خاضعين لاستعمار الدول الأوروبية ، فنظروا لأنفسهم بمنظار غربي ، فوجدوا أنهم مهزومون أمام منطق التقدم والتكامل المادي الغربي^(١) .

من هنا برزت الحاجة إلى العودة إلى القرآن الكريم ، ليتخلص المجتمع من الاستعمار وأفكاره الهدّامة ، فظهرت مدارس متعددة لإصلاح المجتمع ، انطلقت من القرآن الكريم ، لتجعله دستوراً ومنهجاً في الإصلاح ، فبرز من المفسرين في العصر الحديث من اهتم بالجانب الاجتماعي لحاجة المجتمع إليه في هذا العصر ، واستطاعوا بذلك إدخال القرآن الكريم في قلب المجتمع ، يستلهمون منه رُشدَهم ، ويتلمّسون منه صلاحهم ، ويستخلصون منه عزَّهم . لقد أخذ المفسِّرون المعاصرون يبحثون في القرآن عن حلول لمشكلاتهم التي تواجههم

(١) انظر : خرمشاهي ، بهاء الدين ، التفسير والتفاسير الحديثة ، ص ٩٨ ، دار الروضة ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٩١ م .

، وتواجه مجتمعاتهم ، فظهرت اتجاهات جديدة للتفسير في العصر الحديث ، تمثلت في التركيز على حل المشكلات في المجتمع ، سواء أكانت متعلقة بالفرد ، أم الأسرة ، أم المجتمع ، أم الأمة بأسرها ، كان من أبرز تلك الاتجاهات وأهمها ، ما عُرف مؤخراً بالاتجاه الاجتماعي في التفسير .

ولعلّ أسرع هذه الاتجاهات ظهوراً وانتشاراً^(١) هو ما يسمى (الاتجاه الاجتماعي في التفسير) كونه يعنى بالقضايا المتجددة ، التي تمسّ المجتمع بشكل عام ، والإنسان بشكل خاص . وقد ركّز أصحاب هذا الاتجاه جهودهم على تخليص المجتمع من خبائث الأخلاق ، والحث على الفضائل ، وتنمية المعرفة ، للنهوض بالمجتمع نحو التقدم والرقيّ والحضارة .

قال الشيخ محمود شلتوت في مقدمة تفسيره : " نعم قام بعض الخالدين - وهم قلّة - في تاريخ الثقافة الإسلامية والفكر الإسلامي بمحاولة في تفسير القرآن الكريم ، يتميّز بها تفسيرهم عن تفسير السابقين في تضمين تراكيب القرآن وألفاظه المعاني الخُلقية التي أمر بها الإسلام ، وشرعها الله سبحانه ، لتهديب النفس ، وتزكية الوجدان ، ونهضة الشعوب ، وتنمية المعرفة ، والسموّ بالإنسانية عن الدنّيا والخبائث في السلوك والعلاقات العامة ، وبذلك يكون القرآن مُلبيّاً لحاجات المسلمين في كل وقت ، والمبادئ أو القضايا التي استحدثتها الحضارات الإنسانية الحديثة ، أو أوجدتها بعض الأحداث العالمية"^(٢) .

قمت بتقسيم هذا البحث إلى مبحثين بالإضافة إلى المقدمة والخاتمة . تناولت في المبحث الأول : الاتجاه الاجتماعي في التفسير (مفهومه ونشأته ودواعيه وأعلامه) . واشتمل على أربعة مطالب هي : المطلب الأول : مفهوم الاتجاه الاجتماعي في التفسير . المطلب الثاني : نشأة الاتجاه الاجتماعي في التفسير ودواعيه . المطلب الثالث : هل في القرآن الكريم قواعد اجتماعية ؟ . المطلب الرابع : أعلام الاتجاه الاجتماعي في التفسير . أما المبحث الثاني فجاء بعنوان : موضوعات التفسير الاجتماعي ونماذج من كتب التفسير .

(١) انظر : شريف ، مُجّد ، بحوث في تفسير القرآن ، ص ٢١٣ ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٦ م .

(٢) شلتوت ، محمود ، تفسير القرآن الكريم ، ص ١١ ، دار القلم ، القاهرة ، الطبعة الثانية .

اشتمل على ستة مطالب هي : المطلب الأول : الحرية . المطلب الثاني : التحذير من البدع والشبهات والعقائد الفاسدة . المطلب الثالث : الاهتمام بمشكلات السياسة ونظام الحكم والدعوة إلى جهاد الأعداء المعتدين . المطلب الرابع : الاهتمام بذكر السنن الأخلاقية والتحذير من الرذيلة . المطلب الخامس : الاهتمام بالقضايا الاقتصادية . المطلب السادس : الاهتمام بقضايا المرأة .

ثم أودعت الخاتمة أهم النتائج التي توصلت إليها في البحث .

أهداف البحث :

يهدف هذا البحث إلى تحقيق جملة من الأهداف أهمها :

- ١- وضع مفهوم دقيق للاتجاه الاجتماعي في التفسير خاصة بعد اختلاف الباحثين المعاصرين في تحديد الاصطلاح الذي ينطبق عليه هذا الاتجاه .
- ٢- بيان مميزات المدرسة الاجتماعية في التفسير في العصر الحديث .
- ٣- الوقوف على نشأة هذه الاتجاه ودواعيه .
- ٤- تحديد أهم أعلام المفسرين الذين سلكوا هذه الاتجاه في تفاسيرهم .
- ٥- بيان القضايا الكبرى التي اهتم بها أصحاب هذا الاتجاه في تفاسيرهم .

الدراسات السابقة :

وقفت على بعض الدراسات التي اهتمت بالاتجاه الاجتماعي في التفسير ، ويمكن

تقسيم هذه الدراسات إلى نوعين :

النوع الأول : دراسات أفردت للحديث عن مدرسة المنار ، منها :

- ١- (الإصلاح الاجتماعي في تفسير المنار) ، رسالة ماجستير ، الجامعة الأردنية ، ١٩٨٨ م ، للباحث خضر إسماعيل دالية ، وإشراف الدكتور أحمد إسماعيل نوفل ، وهذه الرسالة غير مطبوعة .

وقد أفدت من هذه الدراسة ، ولكنها مقصورة على تفسير واحد ، ودراستي تتناول عدة تفاسير سلكت هذا الاتجاه .

٢- (منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير) ، تأليف الأستاذ الدكتور فهد بن عبد الرحمن الرومي .

وقد أفدت من هذه الدراسة ، ولكنها لم تركز على الاتجاه الاجتماعي في التفسير ، وإنما ركزت على المنهج العام للمدرسة العقلية في التفسير .

النوع الثاني : دراسات عامة ، تناولت اتجاهات التفسير في العصر الحديث ، ومنها الاتجاه الاجتماعي ، على اختلاف بينها في الاصطلاح على هذا الاتجاه ، مما جاء الحديث في هذه الدراسات عاماً ، دون التركيز على الاتجاه الاجتماعي بالمفهوم الذي ركزت عليه في هذا البحث ، ودون ذكر نماذج تطبيقية على هذا الاتجاه في التفسير ، ومن هذه الدراسات :

- ١- التفسير والمفسرون ، للدكتور محمد حسين الذهبي .
- ٢- اتجاهات التفسير في العصر الراهن ، للدكتور عبد المجيد المحتسب .
- ٣- اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر ، للأستاذ الدكتور فهد الرومي .
- ٤- بحوث في أصول التفسير ومناهجه ، للأستاذ الدكتور فهد الرومي .
- ٥- اتجاهات التجديد في تفسير القرآن في مصر ، للدكتور محمد شريف .
- ٦- المفسرون ومناهجهم في التفسير ، للأستاذ الدكتور فضل حسن عباس .
- ٧- تعريف الدارسين بمناهج المفسرين ، للدكتور صلاح الخالدي .

وقد أفدت من هذه الدراسات جميعها ، في جعلها مادة للدراسة والعرض والنقد ، والتوفيق والأخذ والرد .

مشكلة البحث :

إن المشكلة التي يعالجها هذا البحث تكمن في الإجابة عن مجموعة من الأسئلة منها : ما مفهوم الاتجاه الاجتماعي في التفسير ؟ متى نشأ هذا الاتجاه ؟ وما دواعي نشوئه ؟ هل في القرآن قواعد اجتماعية ؟ من أشهر أعم هذا الاتجاه ؟ ما القضايا الكبرى التي تناولها أصحاب المدرسة الاجتماعية في تفاسيرهم ؟

حدود البحث :

إن المفسرين الذين سلكوا الاتجاه الاجتماعي في العصر الحديث كثيرون ، ولكني اكتفيت بستة مفسرين كانوا أعلاماً في هذا الاتجاه هم : الشيخ مُحَمَّد عبده ، والشيخ مُحَمَّد رشيد رضا ، والشيخ أحمد مصطفى المراغي ، والشيخ مُحَمَّد فريد وجدي ، والشيخ محمود شلتوت ، والشيخ سيد قطب ، رحمهم الله تعالى .

منهجية البحث :

اعتمدت في هذا البحث على المنهج الوصفي التحليلي ، الذي يقوم على الاستقراء والتحليل والاستنباط والترجيح . وقمت في سبيل ذلك بقراءة شوط كبير من كتب التفسير لأهم أعلام هذا الاتجاه ، وقمت باستبطان وتحليل أهم مميزات هذا الاتجاه في التفسير ، مع ذكر نماذج تطبيقية للقضايا التي اهتم بها أصحاب هذا الاتجاه في تفاسيرهم .

خطة البحث

المبحث الأول : الاتجاه الاجتماعي في التفسير (مفهومه ونشأته ودواعيه وأعلامه)

المطلب الأول : مفهوم الاتجاه الاجتماعي في التفسير .

المطلب الثاني : نشأة الاتجاه الاجتماعي في التفسير ودواعيه .

المطلب الثالث : هل في القرآن الكريم قواعد اجتماعية ؟ .

المطلب الرابع : أعلام الاتجاه الاجتماعي في التفسير .

المبحث الثاني : موضوعات التفسير الاجتماعي ونماذج من كتب التفسير

المطلب الأول : الحرية .

المطلب الثاني : التحذير من البدع والشبهات والعقائد الفاسدة .

المطلب الثالث : الاهتمام بمشكلات السياسة ونظام الحكم والدعوة إلى جهاد الأعداء

المعتدين .

المطلب الرابع : الاهتمام بذكر السنن الأخلاقية والتحذير من الرذيلة .

المطلب الخامس : الاهتمام بالقضايا الاقتصادية .

المطلب السادس : الاهتمام بقضايا المرأة

**المبحث الأول : الاتجاه الاجتماعي في التفسير (مفهومه ونشأته
ودواعيه وأعلامه)**

المطلب الأول : مفهوم الاتجاه الاجتماعي في التفسير

(الاتجاه) : هو الهدف الذي يتجه إليه المفسرون في تفاسيرهم ، ويجعلونه نصب أعينهم ،
وهم يكتبون ما يكتبون "(^١)".
(الاجتماعي) :

(١) انظر: الرومي، فهد ، بحوث في أصول التفسير ، ص ٥٥ ، مكتبة التوبة، الرياض، الطبعة الخامسة

، ١٤٢٠ هـ

لم يتفق الباحثون في علم الاجتماع على تعريف لهذا العلم ، بل وجدت أحد الباحثين يصرّح بفشلهم في ذلك فقال : " إن علماء اجتماع واختصاصيين في العلوم الاجتماعية ، قد تصارعوا كثيراً في بدء هذا القرن - يعني العشرين الميلادي - ودون جدوى من أجل تعريف علم الاجتماع ، وتعيين ميدانه وتحديد الموقف العلمي لعالم الاجتماع"^(١).

إلا أنني وجدت أحد الباحثين يصرّح باتفاقهم - إلى حدّ ما - على موضوع هذا العلم فقال :

" تكاد تكون معظم الاتجاهات العائمة متّفقة على أن موضوع العلم ، هو دراسة المجتمع في بُنيته ونُظمه وظواهره دراسة علمية ، وصفة تحليلية ، الغرض منها الوصول إلى القوانين التي تحكمها ، وهذا التعريف يوحي بأن ميدان هذا العلم ، هو دراسة حياة الأفراد في حالة الاجتماع ، والعلاقات التي تنشأ بينهم ، والنظم والقواعد المنظمة لعلاقاتهم ، ويدخل في نطاق هذه الدراسة الوقوف على التراث الاجتماعي وعناصره ، والمعتقدات ، والفنون ، ومظاهر الحضارة ، ومعايير الأخلاق ، وأساليب العمل ، والتقسيم الطبقي ، ومظاهر التخلف ، والتغير ، والتقدم ، والتنظيم الاجتماعي"^(٢).

وأستطيع أن أخلص من هذا إلى أن علم الاجتماع هو : العلم الذي يعني بدراسة المجتمع في بُنيته ، ونُظمه ، وظواهره ، دراسة علمية ، للوقوف على مظاهر الحضارة ومعايير الأخلاق .

أما (الاتجاه الاجتماعي في التفسير)^(٣) بهذا العنوان ، فإنني لم أجد أحداً - فيما بحثت - قد عرّفه ، أو وضع له مفهوماً دقيقاً ، بل إنني وجدت تبايناً عند الباحثين المعاصرين في الاصطلاح على هذا الاتجاه ، ومن هذه المصطلحات التي يطلقونها عليه :

(١) حسن ، ملحم ، مبادئ علم الاجتماع ، ص ٩ ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر .

(٢) الخشاب ، مصطفى ، علم الاجتماع ومدارسه ، ج ٢ ، ص ١٦ ، الطبعة الخامسة ، ١٩٩٣ م .

(٣) انظر : الخالدي ، صلاح عبد الفتاح ، تعريف الدارسين بمناهج المفسرين ، ص ٥٦٨ ، دار القلم ، دمشق ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٢ م .

وقد مثل الخالدي للاتجاه الاجتماعي بكل من : مُجّد رشيد رضا ، والمرآغي ، ووهبة الزحيلي .

(الاتجاه العقلي)^(١)، و(الاتجاه الأدبي)^(٢)، و(الاتجاه الهدائي)^(٣)، و(الاتجاه التوفيقي)^(٤)، و(الاتجاه الدعوي الحركي)^(٥)، و(المدرسة المصرية)^(٦)، إلى غير ذلك من المصطلحات .
وقد وجدت بعض الباحثين يجمع بين هذه المصطلحات ، فيطلقون على هذا

(١) انظر : الرومي ، فهد بن عبد الرحمن بن سليمان ، **منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير** ، ص ٦٧ ، مؤسسة الرسالة ، الرياض ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٣ هـ .

وقد مثل الدكتور فهد الرومي للمدرسة العقلية بكل من : جمال الدين الأفغاني ، ومُجد عبده ، ومُجد رشيد رضا ، ومُجد المراغي ، ومُجد فريد وجدي ، ومحمود شلتوت ، وعبد العزيز جاويش ، وعبد القادر المغربي ، وأحمد المراغي .

والخالدي ، **تعريف الدارسين بمنهج المفسرين** ، ص ٥٦٦ .

وقد مثل الخالدي للاتجاه العقلي بكل من : ابن عاشور ، وأحمد المراغي ، وعبد الكريم الخطيب .

(٢) انظر : شريف ، مُجد ، **اتجاهات التجديد في تفسير القرآن في مصر** ، ص ٤٩١ ، دار التراث ، القاهرة .

وانظر : الرومي ، فهد بن عبد الرحمن بن سليمان ، **اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر** ، ج ١ ، ص ١٧ ، طبع بإذن رئاسة إدارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد في المملكة العربية السعودية برقم ٥ / ٩٥١ / ٥ وتاريخ ١٤٠٦/٨/٥ ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٧ هـ .

وقد قسم الدكتور فهد الرومي هذا الاتجاه إلى قسمين : أحدهما : المنهج البياني في التفسير ، وتحدث فيه عن مدرسة أمين الخولي . والثاني : منهج التدوق الأدبي للقرآن الكريم ، وتحدث فيه عن مدرسة سيد قطب .

(٣) انظر : شريف ، **اتجاهات التجديد في تفسير القرآن في مصر** ، ص ٤٩١ .

(٤) انظر : المحتسب ، عبد المجيد ، **اتجاهات التفسير في العصر الراهن** ، ص ١٠١ ، دار الفكر ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٣ م .

ومعنى التوفيقي : أي التوفيق بين الإسلام وحضارة الغرب .

(٥) انظر : الخالدي ، **تعريف الدارسين بمنهج المفسرين** ، ص ٥٦٨ .

وقد مثل الخالدي للاتجاه الدعوي الحركي بكل من : سيد قطب ، وسعيد حوى .

(٦) نسبة إلى المكان الذي نشأت فيه هذه المدرسة .

الاتجاه مثلاً : (الاتجاه الأدبي الاجتماعي)^(١)، و(الاتجاه العقلي التوفيقي)^(٢)، و(المدرسة التربوية الوجدانية)^(٣)، و(المدرسة العقلية الاجتماعية)^(٤).

إن اختلاف الباحثين في مصطلحات هذا الاتجاه أدى إلى اختلافهم في تحديد التفاسير التي تمثله ، وسبب هذا الاختلاف يعود إلى اختلافهم في المنظار الذي نظروا إليه من خلاله .

فمن نظر إلى وسيلة هذا الاتجاه فقد سمّوه : الاتجاه العقلي ، أو الأدبي ، أو التوفيقي ، لأنهم نظروا إلى الوسيلة ، أو الطريقة المتبعة في هذا الاتجاه ، فوجدوا أنه العقل ، أو ما يصدر عنه من علوم أدبية ، أو توفيق بين الإسلام وحضارته .ومن نظر إلى غايته ، أو

(١) انظر : الذهبي ، مُجَّد حسين ، التفسير والمفسرون ، ج ٢ ، ص ٤٠١ ، مكتبة وهبة ، القاهرة .

وقد مثل الذهبي على هذا الاتجاه بكل من : مُجَّد عبده ، و مُجَّد رشيد رضا ، و مُجَّد المراغي .

(٢) انظر : المحتسب ، اتجاهات التفسير في العصر الراهن ، ص ١٠١ .

(٣) انظر : عباس ، فضل حسن ، المفسرون ومدارسهم ومناهجهم ، ص ٣٥٧ .

وقد مثل الدكتور فضل حسن عباس على هذه المدرسة بسيد قطب فقط .

(٤) انظر : الرومي ، اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر ، ج ١ ، ص ١٧ .

يقول الدكتور فهد الرومي : " وإنما مزجت فيه بين صفتين "العقلية والاجتماعية" لأنه قد اشتهرت بهما في العصر الحديث مدرسة واحدة في التفسير هي مدرسة الأستاذ الإمام مُجَّد عبده ، ولا يعني هذا أن لا يكون قد شاركها أحد في التفسير الاجتماعي ، الذي يعني بإصلاح المجتمع وتشخيص عيوبه ثم علاجها على ضوء القرآن ، وإنما يعني أن هذه المدرسة قد أولت هذا الجانب من التفسير اهتماماً خاصاً وأنزلته منزلة كبيرة حتى اشتهرت به وعرفت ، بل ولقبت به فصار بعضهم يسميها المدرسة العقلية ، وآخرون يسمونها المدرسة الاجتماعية ، ولذا رأيت أن أمزج بين الصفتين في اتجاه واحد " . اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر ، ج ١ ، ص ١٧ .

وانظر أيضاً : عباس ، فضل حسن ، المفسرون ومدارسهم ومناهجهم ، ص ١١ ، دار النفائس ،

الأردن ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٧ م .

وقد عدّ الدكتور فضل حسن عباس من هذه المدرسة كلاً من : مُجَّد عبده ، و مُجَّد رشيد رضا ، و عبد

القادر المغربي ، و مُجَّد المراغي ، وأحمد المراغي ، ومحمود شلتوت ، و عبد الجليل عيسى .

الهدف منه ، فقد سَمَّوه : الاتجاه الاجتماعي ، أو الهدائي ، لأن المقصود من هذا الاتجاه هو هداية المجتمع وإصلاحه .

ومن نظر إلى مكانه الذي نشأ فيه فقد سَمَّوه : المدرسة المصرية ، لأن المكان الذي نشأ فيه هذا الاتجاه هو مصر. ومن نظر إلى أبرز سمة فيه فقد سَمَّوه بها ، فمن رأى أن أبرز سمة فيه العقل سَمَّوه (المدرسة العقلية) ، ومن رأى أن أبرز سمة فيه اللون الأدبي سَمَّوه (الاتجاه الأدبي) ، ومن رأى أن أبرز سمة فيه السنن الاجتماعية سَمَّوه (الاتجاه الاجتماعي) وهكذا. غير أنني أرى أن تلك الاتجاهات جميعها (العقلية ، والأدبية ، والتوفيقية ، والهدائية ...) مصطلحات ضيقة ، وأن الاتجاه الاجتماعي يشملها جميعاً ، فالأنسب أن نطلق عليها الاتجاه الاجتماعي في التفسير . ليشملها جميعاً .

فإذا تقرر ذلك ، وبعد هذه الجولة في تحرير هذه المصطلحات واختلاف نظرة الباحثين إليها ، أستطيع أن أضع مفهوماً (للاتجاه الاجتماعي في التفسير) بالقول ، هو : الهدف الذي يتجه إليه المفسرون في تفاسيرهم ، وهو إصلاح المجتمع في بُنيته ونُظمه وعلاقاته ، للوقوف على مظاهر الحضارة ومعايير الأخلاق من خلال نصوص القرآن الكريم وهداياته وإعجازه .

المطلب الثاني : نشأة الاتجاه الاجتماعي في التفسير ودواعيه

عرفنا فيما سبق الحالة الاجتماعية للعالم الإسلامي ، مع نهاية القرن التاسع عشر الميلادي ، وبداية القرن العشرين ، وما أصاب البلدان الإسلامية من الضعف والتخلف والتفرُّق ، نتيجة الغزو الفكري ، والاستعمار الأوروبي .

في ظل هذه الظروف ، وهذا التوقيت ، نشأ الاتجاه الاجتماعي في التفسير ، يتلمس النجاة والإصلاح للمجتمع ، منطلقاً من القرآن الكريم وهداياته وتشريعاته .

لقد كانت نشأة الاتجاه الاجتماعي في التفسير مع نشأة مدرسة المنار في مصر ، بل إن مدرسة المنار تُعدُّ المؤسسة الأولى لهذا الاتجاه ، ممثلة بإمامها الشيخ مُحمَّد عبده ، وتلميذه الشيخ مُحمَّد رشيد رضا

ومن هنا رأينا السبب في إطلاق اصطلاحات مختلفة على الاتجاه الاجتماعي ،
تتلاءم مع سمات هذه المدرسة .

وكانت بداية هذا الاتجاه تتمثل بالحديث المباشر في المساجد ، والمجتمعات ، والمنتديات ،
والمحاضرات ، وفي الصحافة ، والمجلات ، والمقالات ... والاتصال والتعرف على مختلف
الطبقات من الملوك والوزراء والأمراء والعلماء والموظفين والفلاحين ، والاتصال بكل الفئات ،
وتوجيه كل منها إلى الوجهة الإسلامية ، ثم انتهى الأمر بهذا الاتجاه إلى تأليف المؤلفات
الكثيرة التي تخدمه وتحقق أهدافه ، كل ذلك بأسلوب ليس بالمتكلف الذي يرقى عن مدارك
العامة ، ولا الذي يمجُّه ويأنفه الخاصة^(١).

ولعلّ من أبرز دواعي ظهور الاتجاه الاجتماعي في التفسير في بداية القرن التاسع
عشر الميلادي ، أو بداية القرن الرابع عشر الهجري ، الأمور الآتية^(٢):

أولاً : الهجمة الشرسة من أعداء الإسلام على أمة الإسلام ، التي كانت تستهدف النيل من
عقيدتها ومبادئها وقيمها وأخلاقها وحضارتها .

ثانياً : كان تركيز الهجمة على مصر ، لأن مصر كانت مرشحة لزعامة العالم الإسلامي ،
خاصة بعد سقوط الدولة العثمانية ، فإذا تمّ لها إفسادها سهّل عليهم السيطرة على بقية العالم
الإسلامي .

ثالثاً : التردّي الاجتماعي ، والمفاسد الأخلاقية والتربوية والتعليمية ، التي كانت تسود مصر
في ذلك الوقت .

رابعاً : ظهور دعاوى تحرير المرأة ، بعد تشويه صورة الإسلام عامة ، ونظرته إلى المرأة خاصة
.

خامساً : ظهور بوادر النهضة الغربية ، وتخلّف العالم العربي والإسلامي على المستويات
جميعها .

(١) انظر : الرومي ، اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر ، ص ١٧٠ .

(٢) انظر : دالية ، خضر إسماعيل ، الإصلاح الاجتماعي في تفسير المنار ، ص ١٠-١٧ ، بتصرف
واختصار ، رسالة ماجستير ، الجامعة الأردنية ، ١٩٨٨ م .

لقد فرضت المرحلة التي تعيشها الأمة العربية نفسها على المفسّر ، وأنتجت هذه النزعة الإلزامية في التفسير ، وكانت المشكلة الحقيقية التي واجهت الشعوب الإسلامية في مطلع هذا القرن هي تنظيم جهودها ، لتقاوم السيطرة الغربية ، ونتج عن ذلك أن شغل المفكر الديني بغايات عاجلة ، ذات صبغة قانونية واجتماعية ... شغل المفكر الديني الحديث بعرض القيم القرآنية عرضاً اجتماعياً ، لإثبات صلاح العقيدة والقرآن لحياة البشرية ، على اختلاف الأجيال والأقاليم ، لينتهي إلى القول بأن الجماعات التي تدين بالقيم القرآنية ، تستمد حاجتها من الدين الذي لا غنى عنه ، ثم لا تفوتها منها حاجتها إلى العلم والحضارة^(١).

المطلب الثالث : هل في القرآن الكريم قواعد اجتماعية ؟

هل يمكننا القول بأن القرآن الكريم قد احتوى - فيما احتواه من تشريعات وهدايات - على قواعد ثابتة في علم الاجتماع ؟ وهل يجوز لنا أن نقول : إن أصول علم الاجتماع قد تضمّنها القرآن الكريم؟

لقد ناقش بعض الباحثين هذه القضية ، فانقسموا فريقين :

الفريق الأول : يرى عدم وجود مثل هذه القواعد في القرآن الكريم ، منهم الزرقاني . قال الزرقاني : " وتحقيق القول في هذا الموضوع : أن القرآن الكريم كتاب هداية وإعجاز من أجل هذين المطمحين نزل وفيهما تحدث وعليهما دل . فكل علم يتصل بالقرآن من ناحية قرآنيته أو يتصل به من ناحية هدايته أو إعجازه فذلك من علوم القرآن . وهذا ظاهر في

(١) انظر : الشرقاوي ، عفت ، قضايا إنسانية في أعمال المفسرين ، ص ٨١ ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، ١٩٨٠ م .

العلوم الدينية والعربية. أما العلوم الكونية وأما المعارف والصناعات وما جَدَّ أو يَجِدُّ في العالم من فنون ومعارف كعلم الهندسة والحساب وعلم الهيئة والفلك وعلم الاقتصاد والاجتماع وعلم الطبيعة والكيمياء وعلم الحيوان والنبات فإن شيئاً من ذلك لا يجمل عدّه من علوم القرآن لأن القرآن لم ينزل ليدل على نظرية من نظريات الهندسة مثلاً ولا ليقرر قانوناً من قوانينها. وكذلك علم الهندسة لم يوضع ليخدم القرآن في شرح آياته أو بيان أسرارها . وهكذا القول في سائر العلوم الكونية والصناعات العالمية. وإن كان القرآن قد دعا المسلمين إلى تعلمها وحذقها والتمهر فيها خصوصاً عند الحاجة إليها. وإنما قلنا: إنه لا يجمل اعتبار علوم الكون وصناعاته من علوم القرآن مع أن القرآن يدعو إلى تعلمها لأن هناك فرقاً كبيراً بين الشيء يحث القرآن على تعلمه في عموماته أو خصوصاته وبين العلم يدل القرآن على مسأله أو يرشد إلى أحكامه أو يكون ذلك العلم خادماً للقرآن بمسأله أو أحكامه أو مفرداته. فالأول ظاهر أنه لا يعتبر من علوم القرآن بخلاف الثاني. وهو ما نريد أن نرشدك إليه وأن تحرص أنت بدورك عليه" (١).

الفريق الثاني : يرى وجودها في القرآن الكريم ، منهم الشيخ مُجَّد رشيد رضا ، ومُجَّد فريد وجدي.

قال مُجَّد رشيد رضا : " فكِتَابُ الْإِسْلَامِ هُوَ الْمُرْشِدُ الْأَوَّلُ لِسُنَنِ الْاجْتِمَاعِ وَالْعُمَرَانِ ، وَلَكِنَّ الْمُسْلِمِينَ فَصَّرُوا فِي طَوْرِ حَيَاتِهِمُ الْعِلْمِيَّةِ عَنْ تَفْصِيلِ ذَلِكَ بِالتَّدْوِينِ لِعَدَمِ شُعُورِهِمْ بِالْحَاجَةِ إِلَيْهِ ، وَكَانَ حَقُّهُمْ فِي هَذَا الْعَصْرِ أَنْ يَكُونُوا أَوْسَعَ النَّاسِ بِهِ عِلْمًا ؛ لِأَنَّ كِتَابَ اللَّهِ مُؤَيَّدٌ لِلْحَاجَةِ ، بَلِ الصَّرُورَةِ الَّتِي تَدْعُو إِلَيْهِ " (٢).

وقال مُجَّد فريد وجدي : " القرآن أثبت أن للاجتماع نواميس ثابتة ، قبل أن يتخيّلها أعلم

(١) الزرقاني ، مُجَّد عبد العظيم الزُّرقاني (ت ١٣٦٧هـ) ، مناهل العرفان في علوم القرآن ، ج ١ ، ص ٢٤ ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ، دار الفكر ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٩٨٨ م .

(٢) رضا ، مُجَّد رشيد بن علي رضا بن مُجَّد شمس الدين بن مُجَّد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني (ت ١٣٥٤هـ) ، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) ، ج ٩ ، ص ٤٨٣ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٠ م

علماء الأرض تحيُّلاً... فالقرآن سبق العالم في وضع أصول العلم الاجتماعي^(١).
قلت : ولا تعارض بين ما ذكره الفريقان ، إذ لا تعارض بين إعجاز القرآن وهدايته ، وبين اشتماله على علوم كونية واجتماعية ، بل هذا يؤكد إعجازه وهدايته ، لأن المقصود الأول من هذه العلوم إثبات صدق القرآن الكريم ، وأنه تنزيل من رب العالمين ، وأن تشريعاته وأحكامه وعلومه مما يحتاجه البشر في كل زمان ومكان ، وذلك لأن القرآن الكريم هو الكتاب الخالد ، وهو كتاب الإنسانية
قال شكيب أرسلان : " وكل ما يفيد المجتمع الإسلامي من علوم وصناعات ، هو مما ينبغي الترحيب به ... ، وكل علم يفيد الاجتماع البشري يدخل في العلوم الدينية ، إن لم يكن ذلك مباشرة ، فمن حيث النتيجة^(٢) .

المطلب الرابع : أعلام الاتجاه الاجتماعي في التفسير

عرفنا فيما سبق أن الباحثين اختلفوا في تحديد مصطلح دقيق للاتجاه الاجتماعي في التفسير ، وبناء عليه اختلفوا في تحديد أعلامه ، بل نرى بعضهم يذكر علماً واحداً تحت أكثر من اتجاه^(٣) .

إن القرآن الكريم قد عالج الأمراض الاجتماعية ، ووضع الحلول للمشكلات السياسية والاقتصادية والقضايا الأسرية .

(١) وجدي ، محمد فريد ، القرآن يضع أصول علم الاجتماع ، مجلة الأزهر ، مجلد ٤ ، عدد ٧ ، ص ٤٩٥ ، شهر رجب ، ١٩٣٣ م .

(٢) أرسلان، شكيب، لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم ، ص ١٣٣ ، دار مكتبة الحياة، بيروت، الطبعة الثانية .

(٣) كما فعل الدكتور فهد الرومي حيث ذكر (في ظلال القرآن لسيد قطب) مرة في كتب التفسير الاجتماعي ، ومرة يذكره في كتب (التذوق الأدبي) ، ولا ضير في ذلك ، ما دام أن هذا التفسير يصدق عليه الاتجاهان .

انظر : الرومي ، بحوث في أصول التفسير ، ص ١٠٥ ، ص ١١١ .

" ولهذا اتجهت طائفة من المفسرين يعنون بهذه الآيات ، ويتوسعون في تفسيرها ، طالبين علاج مشكلات مجتمعاتهم ، فينظر المفسر إلى مجتمعه نظرة الطبيب الفاحص ، يتلمّس داءه ، ويتعرّف على علّته ، حتى إذا عرفه نظر في القرآن يطلب الدواء والعلاج ، فإذا وجده توسّع في شرحه وبيانه ، وحثّ قومه على التزامه ، والمفسرون كلهم يتناولون هذه الآيات ويفسرونها ، إلا أن طائفة منهم تقف عندها فتطيل الوقوف ، وتربط بينها وبين ما هو سائد في مجتمعاتهم ، مما هو مخالف لها ، فتميّز تفسيرها بهذه الميزة ، واصطبغ بهذه الصبغة" (١).

إن رائد الاتجاه الاجتماعي في التفسير هو مدرسة المنار ، ممثلة بإمامها الشيخ محمد عبده ، وتلميذه الشيخ محمد رشيد رضا ، فإن تفسير المنار كثيراً ما يشير إلى موضوع السنن الاجتماعية ، ويبين أهميتها للمسلمين ، وهو أبرز ما يميز تفسير المنار عن غيره من التفاسير . ولعلّ السرّ في تركيز الشيخ محمد رشيد رضا على موضوع السنن ، والقضايا التي تتصل بعلم الاجتماع ، هو حالة العصر الذي عاش فيه ، فقد كان المسلمون في بوادر نهضة ، وأراد هو أن يُسهّم في هذه النهضة من جهة ، وأن يجعلها تسير على أساس من هدى الإسلام ، ولا تنجرف مع تيار الغرب من جهة أخرى (٢).

ويتضح من سلوك مدرسة المنار أنها كانت تعنى بما تسميه أحوال البشر شيئاً واسعاً ، فلقد كانت تريد الإسهام في بناء شرق ناهض ، بريء من الضعف والوهم والتقليد ، متطلع إلى العلم والثقافة ، آخذ بكل أسباب الحضارة وتراث العقل البشري ، وفي ضوء هذه الغاية النبيلة رأت المدرسة أن تناول القرآن الكريم ينبغي أن يُسهّم في خلق وعي اجتماعي وثقافي جديد ، ويمهّد السبيل أمام الحرية الفكرية (٣).

(١) الرومي ، بحوث في أصول التفسير ، ص ١٠٥ .

(٢) انظر : جولد زيهير ، مذاهب التفسير الإسلامي ، ص ٣٧٥ ، ترجمة عبد الحلیم النجار ، مكتبة الخانجي ، القاهرة .

(٣) دالية ، الإصلاح الاجتماعي في تفسير المنار ، ص ٢٧ .

وفيما يأتي تعريف بأهم أعلام المفسرين الذين عُرفوا بهذا الاتجاه ، وهم :

أولاً : الشيخ مُجَدَّ عبده^(١) (١٨٤٩-١٩٠٥م)

هو مُجَدَّ بن عبده بن حسن خير الله ، فقيه مفسر أديب لغوي سياسي مصري ، ولد ونشأ في قرية محلة نصر ، درس في الأزهر ، والتقى بالشيخ جمال الدين الأفغاني ولازمه ، فكان من الأسباب التي دفعته إلى التعمق في الدراسات الفلسفية والاجتماعية والسياسية ، والتطلع إلى آفاق من التجديد والإصلاح في المجتمع الإسلامي ، عمل على مساعدة أستاذه في إصدار مجلة (العروة الوثقى) ، واشتغل بالسياسة ومقاومة الاستعمار ، فاضطهد ونفي ، ولما عاد إلى مصر اشتغل بالتفسير ، وله مقالات وتعليقات كثيرة.

أما تفسيره فكان على شكل دروس ألقاها على تلاميذه ، فسّر فيها القرآن الكريم ابتداءً من سورة الفاتحة ، وانتهاءً بالآية الخامسة والعشرين بعد المئة من سورة النساء ، بالإضافة إلى تفسير جزء (عم) ، وجاء تفسيره ضمن (تفسير المنار) لتلميذه الشيخ مُجَدَّ رشيد رضا ، وقد تميّز تفسيره من ناحية اهتمامه بالإصلاح الاجتماعي ، والتفكير والتجديد في التفسير وتصحيح المفاهيم ، وإصلاح ما تسرّب إلى بعض التفاسير من أوهام تنافي الدلالة القرآنية ، والروح الدينية ، وتحجب قارئها عن الهدى الذي اهتدى به السلف الصالح ، إلى جانب إبراز مقاصد القرآن في تطهير النفوس ، وتحرير العقول ، وإظهار سرّ إعجازه وبلاغته .

(١) انظر : الزركلي ، خير الدين بن محمود بن مُجَدَّ بن علي بن فارس ، الزركلي دمشقي (ت ١٣٩٦هـ) ، الأعلام ، ج ٦ ، ص ٢٥٢ ، دار العلم للملايين ، الطبعة الخامسة عشر ، ٢٠٠٢ م .
وانظر : كحالة ، عمر بن رضا بن مُجَدَّ راغب بن عبد الغني كحالة الدمشقي (ت ١٤٠٨هـ) ، معجم المؤلفين ، ج ١٠ ، ص ٢٧٢ ، مكتبة المثنى ، بيروت ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .
والذهبي ، التفسير والمفسرون ، ج ٢ ، ص ٤٠٥ .
وعباس ، المفسرون مدارسهم ومناهجهم ، ص ١٣ .
والرومي ، منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير ، ص ١٢٤ .

ثانياً : الشيخ مُجَدَّ رشيد رضا^(١) (١٨٦٥-١٩٣٥م)

هو مُجَدَّ رشيد بن علي رضا بن مُجَدَّ شمس الدين بن مُجَدَّ بهاء الدين بن علي خليفة القلموني ، ولد ونشأ في القلمون في طرابلس الشام ، وكان اتصاله بحركة الإصلاح والتجديد عن طريق مجلة (العروة الوثقى) ، مما دفعه إلى الهجرة إلى مصر ، وملازمة الشيخ مُجَدَّ عبده ، وتأسيس مجلة (المنار) ، والمساهمة الواسعة في إصلاح شامل لأحوال المسلمين ، وله عدة آثار مطبوعة .

أما تفسيره المسمى (تفسير المنار) أو تفسير القرآن الحكيم ، فأصله دروس علمية بالأزهر ، ألقاها شيخه مُجَدَّ عبده ، وكان مُجَدَّ رشيد رضا يحضر تلك الدروس ، ويدونها وينسّقها بأسلوبه ، ثم يعرضها على شيخه قبل نشرها بمجلة (المنار) ، ولما توفي شيخه مُجَدَّ عبده ، تابع كتابة التفسير إلى أن وصل إلى وسط سورة يوسف ، فأدركته الوفاة ، وبذلك توقف العمل في إنجاز تفسيره . اهتم في تفسيره بالإصلاح الاجتماعي ، وإبراز مقاصد القرآن الكريم ، وبلاغته وأسلوبه ونظمه ، والوقوف عند آيات العقائد والأحكام ، مع إبعاد الإسرائيليات والأحاديث الضعيفة ، والتصدي للمطاعن التي سدّدت للإسلام .

ثالثاً : الشيخ أحمد مصطفى المراغي^(٢) (١٨٨٣-١٩٥٢م)

-
- (١) انظر : الزركلي ، الأعلام ، ج ٦ ، ص ١٢٦ .
وكحالة ، معجم المؤلفين ، ج ٩ ، ص ٣١٠ .
والذهبي ، التفسير والمفسرون ، ج ٢ ، ص ٤٢٢ .
وعباس ، المفسرون مدارسهم ومناهجهم ، ص ٨٩ .
والخالدي ، تعريف الدارسين بمناهج المفسرين ، ص ٥٧٠ .
والرومي ، منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير ، ص ١٧٠ .
(٢) انظر : زمامة ، عبد القادر وآخرون ، معجم تفاسير القرآن الكريم ، ص ٥٧٠ ، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ، ١٩٩٧ م .
والزركلي ، الأعلام ، ج ١ ، ص ٢٥٨ .

هو أحمد بن مصطفى المراغي ، مفسر مصري ، من تلاميذ الشيخ محمد عبده ، تأثر بتيارات الإصلاح والتجديد ، كما أن صلته بدعوة الشيخ محمد عبده في سنواته المبكرة مع إخوانه جعلته يفتتح ذهنياً على معين جديد من أساليب التفكير والتعبير ، له مجموعة آثار .
أما تفسيره (تفسير المراغي) فيمتاز بروح السلفية والتجديد ، ومحاولة تصحيح المفاهيم في المجتمع المسلم ، فجرد تفسيره من الأفاصيص والإسرائيليات والمذاهب ، وصاغ عباراته صياغة أدبية محدودة المعنى ، واضحة اللغة ، من أول التفسير إلى آخره ، وهو في تفسيره يركز على خطوات أربع هي : بيان إجمالي حول السورة ومضمونها . ثم شرح المفردات اللغوية . ثم المعنى الجملي لكل مجموعة من الآيات المرتبطة بموضوع خاص . ثم إيضاح مقاصد الآيات وما تشير إليه من أحكام وآداب وعقائد

رابعاً : الشيخ محمد فريد وجدي^(١) (١٨٧٨-١٩٥٤م)

هو محمد فريد بن مصطفى وجدي ، عالم حكيم كاتب صحافي مصري ، ولد ونشأ بالإسكندرية ، تولى بعض المناصب ، منها تحرير مجلة الأزهر ، والكتابة فيها ، له مؤلفات كثيرة ، اهتم فيها بالاتجاهات الأخلاقية والفكرية والإصلاحية ، ودافع عن القيم الدينية والروحية التي جاء بها الإسلام ، وردّ على كثير من أفكار الملاحدة والماديين .
أما تفسيره المسمى (المصحف المفسّر) أو صفوة العرفان ، فهو مطبوع في مجلد

وعباس ، المفسرون مدارسهم ومناهجهم ، ص ٢٤١ .

والرومي ، منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير ، ص ٢٠٨ .

(١) انظر : زمامة ، عبد القادر وآخرون ، معجم تفاسير القرآن الكريم ، ص ٦٢٥ .

والزركلي ، الأعلام ، ج ٦ ، ص ٣٢٩ .

وكحالة ، معجم المؤلفين ، ج ١١ ، ص ١٢٦ .

وعباس ، المفسرون مدارسهم ومناهجهم ، ص ٥٣٠ .

والرومي ، منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير ، ص ١٩٤ .

واحد على هامش المصحف ، ليكون قارئ القرآن أمام نص يتلوه ، وتفسير يعينه على فهم ما يتلوه لفظياً ومعنوياً ، وقد التزم من أول المصحف إلى آخره أن يفسر الألفاظ أولاً ، ثم المعاني ثانياً ، مع الدقة والإيجاز ، مُجْمِلاً للمقاصد القرآنية التي تنظم حياة الإنسان الروحية والمادية والسلوكية ، وعدم التعرض إلى القواعد والاصطلاحات والمذاهب والآراء.

خامساً : الشيخ محمود شلتوت^(١) (١٨٩٣-١٩٦٣م)

فقيه مفسر مصري ، من أعلام الأساتذة الذين اشتغلوا بالدراسات القرآنية ، وكان في هذه الدراسات ينحو منحىً سلفياً وإصلاحياً ، يميل إلى التجديد ، ويسير على منهاج الشيخ مُجْدَّ عبده في الاعتدال والتسامح ، عُيِّن شيخاً للأزهر سنة ١٩٥٨م حتى وفاته ، وله مؤلفات عديدة .

أما تفسيره (تفسير القرآن الكريم) فلم يتمه ، فسّر فيه أول عشرة أجزاء من القرآن ، ويقع في مجلد واحد ، اتّجه في تفسيره نحو المقاصد العامة للسور والآيات ، وما تشير إليه من قضايا بشرية تتعلق بالشؤون الاجتماعية ، والأحكام الفقهية ، والعقائد الدينية ، بأسلوب يبحث فيه عن أسرار الجمال في التعبير القرآني ، مناقشاً المذاهب القديمة والحديثة ، والتيارات المنحرفة ، وشبهات الماديين .

سادساً : الشيخ سيد قطب^(٢) (١٩٠٦-١٩٦٦م)

هو سيد بن الحاج قطب بن إبراهيم بن حسين الشاربي ، مفكر أديب مفسر

(١) انظر : زمامة ، عبد القادر وآخرون ، معجم تفاسير القرآن الكريم ، ص ٣٨٣ .

والزركلي ، الأعلام ، ج ٧ ، ص ١٧٣ .

وعباس ، المفسرون مدارسهم ومناهجهم ، ص ٢٧٧ .

والرومي ، منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير ، ص ١٩٨ .

(٢) انظر : الزركلي ، الأعلام ، ج ٣ ، ص ١٤٧ .

وعباس ، المفسرون مدارسهم ومناهجهم ، ص ٣٦٠ .

والخالدي ، تعريف الدارسين بمناهج المفسرين ، ص ٥٩٦ .

مصري ، ولد بأسسيوط ، تتلمذ على أستاذه عباس محمود العقاد ، انتدب إلى أمريكا سنة ١٩٤٨م للاطلاع على أساليب التدريس ومناهجها ، فشهد عالماً جديداً ، وحضارة غربية لم تعجبه ، فعاد بمظهر المفكر الناقد الذي يدعو إلى التعليم المستمد من القرآن والسنة ، وتفهم مقاصد الإسلام في الحياة الاجتماعية ، انضم إلى جماعة الإخوان المسلمين ، وظل في هذا الاتجاه يدعو ويكتب حتى سُجن وأعدم عام ١٩٦٩م ، له مؤلفات ومقالات كثيرة يغلب عليها الصبغة الأدبية النقدية الاجتماعية .

أما تفسيره (في ظلال القرآن) فكتبه في السجن ، وهو يشمل القرآن كله ، يقع في ست مجلدات كبيرة ، أقامه على أساس من الهدى الرباني ، إذ هو الدواء الفكري والاجتماعي ، وهو المنهاج الوحيد الذي يعيد للأفراد الطمأنينة ، وللجماعات التماسك ، ولهذا نهج في تفسيره منهاجاً يجعل قارئ كتابه يعيش مثله في ظلال الهدى القرآني ، ويأخذ بيده لتصفية النفس وتطهير القلب ، ومعالجة وسائل الضعف وعوامل الفتنة ، فكان تفسيره يهتم بالمقاصد والأهداف القرآنية ، والتربية الفردية والاجتماعية دينياً وأخلاقياً وفكرياً ، بأسلوب رقيق مؤثر ، يخاطب فيه العواطف والمشاعر ، ليحثها على العودة إلى الله .

المبحث الثاني : موضوعات التفسير الاجتماعي ونماذج من كتب التفسير

لعل من أهم القضايا الكبرى التي تناولها المفسرون المعاصرون في التفسير الاجتماعي بالبحث والدراسة ، وأفاضوا فيها الكلام ، وأقاموا تفاسيرهم عليها ، هي القضايا الآتية :
أولاً : الحرية . ثانياً : التحذير من البدع والعقائد الفاسدة . ثالثاً : الاهتمام بمشكلات السياسة والحكم . رابعاً : الاهتمام بالسنن الأخلاقية . خامساً : الاهتمام بالقضايا الاقتصادية . سادساً : الاهتمام بقضايا المرأة .

إن الغاية من تناول هذه القضايا هي إيقاظ المجتمع الإسلامي ، الذي انبهرت طائفة منه بمعالم الحضارة الغربية ، وأخذوا يتغنون بأمجادها ، ويلهثون وراء مبادئها ، فبرز طائفة من المفسرين الاجتماعيين ، يتلمسون السبيل الأمثل لإصلاح هذه المفاهيم ، وتجلية هذه القضايا ، وفق أحكام الشريعة الإسلامية ، بحيث تسبق هذه الأمة أمة الغرب ، أو تلحق بها ، مع التزامها بمبادئ دينها وأخلاقها .

وفي القرآن الكريم من النظم والقواعد والتشريعات ما يُصلح المجتمع ، ويبني له حضارة قوية ، تقوم على أساس من العقيدة الصحيحة ، والأخلاق الفاضلة ، بما يكفل للمجتمع الطمأنينة والأمن في حياته ، والسعادة في الحياة الدنيا والآخرة .

المطلب الأول : الحرية

من القضايا الكبرى التي وقف المفسرون الاجتماعيون أمامها ، قضية الحرية ، لاستناد كثير من النظم والحضارات والمدنيات إليها من جهة ، ولتشعب ميادينها ونواحيها من جهة أخرى ، ولهذا كانت قضية الحرية هي القضية التي تزهو بها الحضارة الغربية . لا شك أن الاتصال بالمدنية الغربية كان له دور في تنشيط العودة إلى النصوص الإسلامية التي أكدت مفهوم الحرية ، وفي تجديد تفسيرها ، في ضوء بعض القيم التي بدت مجلوبة من الغرب ، وهي في جوهرها من صميم الفكرة الإسلامية^(١).

إن جوانب الحرية في الإسلام كثيرة ومتنوعة ، كحرية الاعتقاد ، والفكر ، والعمل ، والتنقل ، والمسكن ، والتملك ، والتحرر من العبودية ... وغيرها من الحريات التي كفلها الإسلام لأصحابها من خلال تشريعاته وقوانينه الاجتماعية . ولكني سأكتفي بالنماذج الآتية :

• حرية الاعتقاد :

عند تفسير قوله تعالى (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ) [البقرة: ٢٥٦] يقول صاحب الظلال : " إن حرية الاعتقاد هي أول حقوق الإنسان التي يثبت له بها وصف إنسان . فالذي يسلب إنساناً حرية الاعتقاد إنما يسلبه إنسانيته ابتداءً ، ومع حرية الاعتقاد حرية الدعوة للعقيدة ، والأمن من الأذى والفتنة ، وإلا فهي حرية بالاسم لا مدلول لها في واقع الحياة . والإسلام- وهو أرقى تصور للوجود وللحياة ، وأقوم منهج للمجتمع الإنساني بلا مرأ- هو الذي ينادي بأن لا إكراه في الدين ، وهو الذي يبين لأصحابه - قبل سواهم - أنهم ممنوعون من إكراه الناس على هذا الدين "^(٢).

ويدخل في هذه الحرية ، حرية الجدل الديني ، قال تعالى (وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ) [العنكبوت: ٤٦] قال في المصحف المفسر :

(١) انظر : شريف ، اتجاهات التجديد في تفسير القرآن في مصر ، ص ٣٧٥ .

(٢) قطب ، سيد ، في ظلال القرآن ، ج ١ ، ص ٢٩١ .

" أي بالخصلة التي هي أحسن الخصال ، كمقابلة خشونتهم باللين ، وشغبهم بالنصح ، إلا الذين ظلموا منهم بالإفراط في الاعتداء " (١).

• الحرية من الرقّ والعبودية لغير الله :

وهذا مقرّر في الإسلام أصلاً ، من أن جوهر الدين كله عبادة لله وحده ، ومن مبدأ المساواة التامة بين البشر جميعهم ، فقد دعا الإسلام إلى تحرير العبيد .

ومن هنا نرى صاحب المنار يقول عند تفسير قوله تعالى (لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ) [البقرة: ١٧٧]: " (وَفِي الرِّقَابِ) أَي: فِي تَحْرِيرِهَا وَعِتْقِهَا ، وَهُوَ يَشْمَلُ ابْتِياعَ الْأَرْقَاءِ وَعِتْقَهُمْ ، وَإِعَانَةَ الْمُكَاتِبِينَ عَلَى آدَاءِ مُجُومِهِمْ ، وَمُسَاعَدَةَ الْأَسْرَى عَلَى الْإِفْتِدَاءِ ، وَفِي جَعْلِ هَذَا النَّوعِ مِنَ الْبَدَلِ حَقًّا وَاجِبًا فِي أَمْوَالِ الْمُسْلِمِينَ دَلِيلٌ عَلَى رَغْبَةِ الشَّرِيعَةِ فِي فَلَاقِ الرِّقَابِ ، وَاعْتِبَارِهَا أَنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ لِيَكُونَ حُرًّا ، إِلَّا فِي أَحْوَالٍ عَارِضَةٍ تَقْضِي الْمَصْلَحَةَ الْعَامَّةَ فِيهَا أَنْ يَكُونَ الْأَسِيرُ رَقِيقًا ، وَأَخَّرَ هَذَا عَنْ كُلِّ مَا سَبَقَهُ لِأَنَّ الْحَاجَةَ فِي تِلْكَ الْأَصْنَافِ قَدْ تَكُونُ لِحِفْظِ الْحَيَاةِ وَحَاجَةَ الرِّقِيقِ إِلَى الْحُرِّيَّةِ حَاجَةً إِلَى الْكَمَالِ " (٢).

• حرية الفكر والدعوة إلى الاجتهاد ونبد التقليد :

يكثر في تفسير المنار نبد التقليد ، والتشجيع على من يقول به ، وتكثر الدعوة

فيه إلى حرية الفكر ، مع كل آية تدعو إلى نبد التقليد بغير عقل ، ولا هداية .

فمن ذلك ، عند تفسير قوله تعالى (وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ

(١) وجدي ، مُجَدِّ فريد ، المصحف المفسر ، ص ٥٣٠ ، مكتبة وهبة للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٧م .

(٢) رضا ، مُجَدِّ رشيد ، تفسير المنار ، ج ٢ ، ص ٩٤ .

بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكْمٌ عُمِّي فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ [البقرة: ١٧١] نرى

الشيخ محمد رشيد رضا يقول :

" وَالْآيَةُ صَرِيحَةٌ فِي أَنَّ التَّقْلِيدَ بَعْضُ عَقْلِ وَلَا هِدَايَةَ هُوَ شَأْنُ الْكَافِرِينَ، وَأَنَّ الْمَرْءَ لَا يَكُونُ مُؤْمِنًا إِلَّا إِذَا عَقَلَ دِينَهُ وَعَرَفَهُ بِنَفْسِهِ حَتَّى افْتَنَعَ بِهِ . فَمَنْ رُئِيَ عَلَى التَّسْلِيمِ بَعْضُ عَقْلِ، وَالْعَمَلِ - وَلَوْ صَالِحًا - بَعْضُ فِقْهِ، فَهُوَ غَيْرُ مُؤْمِنٍ، لِأَنَّهُ لَيْسَ الْقَصْدُ مِنَ الْإِيمَانِ أَنْ يُدَلَّلَ الْإِنْسَانُ لِلْخَيْرِ كَمَا يُدَلَّلُ الْحَيَوَانُ، بَلِ الْقَصْدُ مِنْهُ أَنْ يَرْتَفِيَ عَقْلُهُ وَتَتَزَكَّى نَفْسُهُ بِالْعِلْمِ بِاللَّهِ وَالْعِرْفَانِ فِي دِينِهِ، فَيَعْمَلُ الْخَيْرَ ؛ لِأَنَّهُ يَفْقَهُ أَنَّهُ الْخَيْرُ النَّافِعُ الْمُرْضِي لِلَّهِ، وَيَتْرُكُ الشَّرَّ ؛ لِأَنَّهُ يَفْهَمُ سُوءَ عَاقِبَتِهِ وَدَرَجَةَ مَضَرَّتِهِ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاهُ، وَيَكُونُ فَوْقَ هَذَا عَلَى بَصِيرَةٍ وَعَقْلٍ فِي اعْتِقَادِهِ، فَلَا يَأْخُذُهُ بِالتَّسْلِيمِ لِأَجْلِ آبَائِهِ وَأَجْدَادِهِ، وَلِذَلِكَ وَصَفَ اللَّهُ الْكَافِرِينَ بَعْدَ تَقْرِيرِ الْمَثَلِ بِأَنَّهُمْ (صُمٌّ) لَا يَسْمَعُونَ الْحَقَّ سَمَاعَ تَدْبِيرٍ وَفَهُمْ (بُكْمٌ) لَا يَنْظُرُونَ بِهِ عَنِ اعْتِقَادٍ وَعِلْمٍ (عُمِّي) لَا يَنْظُرُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ فِي أَنْفُسِهِمْ " (١).

وفي هذه القضية نجد الشيخ محمد فريد وجدي عند تفسير قوله تعالى (يا

أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنَ أَشْيَاءَ إِن تَبَدَّلَ لَكُمْ تَشَوْكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ

يُنزَلُ الْقُرْآنُ تَبَدَّلَ لَكُمْ عَمَّا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ عَفُورٌ حَلِيمٌ (١٠١) فَذَ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ

قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ (١٠٢) [المائدة: ١٠١-١٠٢] يقول :

" هذه الآية من حِكْمِ الإسلام البالغة ، فإنه سلك في تيسير الدين على الناس كل طريق ، حتى سدَّ عليهم طريق السؤال ، خشيةً من تقليد الأمور وتعقيدها ، فأين هذا من أسلوب الذين يفترضون ما لا يكون ويجيبون عنه ؟ " (٢).

ويصرح الشيخ شلتوت في تفسيره بقوله :

" الاجتهاد من مصادر التشريع ، وبابه مفتوح أبداً ، وهو نعمة من الله ، لا يمكن أن تكون

عرضة للزوال بكلمة قوم هاهم - أو هال من ينتمون إليهم من أرباب الحكم والسلطان -

(١) رضا ، محمد رشيد ، تفسير المنار ، ج ٢ ، ص ٧٧ .

(٢) وجدي ، محمد فريد ، المصحف المفسر ، ص ١٥٧ .

أن يكون في الأمة من يرفع لواء الحرية في الرأي والتفكير ، فالشريعة الإسلامية - رغم ما يقوله هؤلاء - شريعة عامة خالدة صالحة لكل عصر ولكل إقليم ، وليس في نصوص الدين عامة ما يُلزم أهل أيِّ عصرٍ باجتهاِدِ عصرٍ سابق ، دفعتهم اعتبارات خاصة إلى اختيار ما اختاروا^(١).

وعند تفسير قوله تعالى (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا) [البقرة: ١٤٣] يقول سيد قطب :

" (أُمَّةٌ وَسَطًا) فِي التَّصَوُّرِ وَالْإِعْتِقَادِ... (أُمَّةٌ وَسَطًا) فِي التَّفْكِيرِ وَالشُّعُورِ، لَا تَجْمَدُ عَلَى مَا عَلِمْتَ وَتَتَعَلَّقُ بِمَنَافِذِ التَّجْرِبَةِ وَالْمَعْرِفَةِ ، وَلَا تَتَّبِعُ كَذَلِكَ كُلَّ نَاعِقٍ ، وَتَقْلُدُ تَقْلِيدَ الْقَرْدَةِ الْمَضْحَكِ ، إِنَّمَا تَسْتَمْسِكُ بِمَا لَدَيْهَا مِنْ تَصَوُّرَاتٍ وَمَنَهِجٍ وَأَصُولٍ ، ثُمَّ تَنْظُرُ فِي كُلِّ نَتَاجٍ لِلْفِكْرِ وَالتَّجْرِبِ ، وَشِعَارِهَا الدَّائِمِ: الْحَقِيقَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ أُنَى وَجَدَهَا أَخَذَهَا ، فِي تَثَبُّتٍ وَيَقِينٍ ."^(٢)

المطلب الثاني : التحذير من البدع والشبهات والعقائد الفاسدة

تُعَدُّ البدع والشبهات والعقائد الفاسدة من أوسع الأبواب التي يدخل منها أعداء الإسلام ، فبيث من خلالها سمومه وأفكاره الفاسدة وشبهاته الهدامة ، وهو ما ابتلي به المجتمع المسلم في العصر الحديث ، لذا ركّز أصحاب المدرسة الاجتماعية في تفاسيرهم على التحذير من هذه البدع والشبهات والعقائد ، ولم يتركوا آية تحذر من ذلك إلا واستدلوا بها ليحذروا الناس من تلك البدع والضلالات والشبهات .

يستدل الشيخ أحمد المراغي بقوله تعالى (وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنَّ آتِيبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَّلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ) [البقرة: ١٢٠] على أن : " سماع هذا الوعيد وأشباهه يوجب

(١) شلتوت ، محمود ، تفسير القرآن الكريم ، ص ٢٠٨ .

(٢) قطب ، سيد ، في ظلال القرآن ، ج ١ ، ص ١٣١ .

على المؤمن أن يفكر طويلاً ، ويتأمل فيما وصل إليه حال المسلمين اليوم ، وكيف إن علماءهم يجارون العامة في بدعهم وضلالاتهم ، وهم يعترفون ببعدها عن الدين ، ولا يكون لهم وازع من نواهيهم، وقوارعه الشديدة، وزواجره التي تحرّ لها الجبال سُجّداً^(١).

وعند مطلع سورة المائدة يعقد الشيخ مُجّد رشيد رضا فصلاً عن (حكمة إباحة قتل الحيوان لأجل أكله) يردّ فيه على بعض العقائد الفاسدة ، فيقول : " ذَهَبَ بَعْضُ الْبِرَاهِمَةِ وَالْفَلَاسِفَةِ إِلَى أَنَّ تَدْكِيَةَ الْحَيَوَانِ وَصَيْدَهُ لِأَجْلِ أَكْلِهِ قَبِيحٌ لَا يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَأْتِيَهُ، وَلَا يَحْسُنُ أَنْ يُعَدِّبَ غَيْرُهُ مِنَ الْأَحْيَاءِ لِأَجْلِ شَهْوَتِهِ، وَيَتَرْتَّبَ عَلَى هَذَا الْإِعْتِرَاضِ عَلَى الشَّرَائِعِ الْإِلَهِيَّةِ الَّتِي أَبَاحَتْ أَكْلَ الْحَيَوَانِ كَالْمُوسَوِيَّةِ وَالْعَيْسَوِيَّةِ وَالْمُحَمَّدِيَّةِ، وَمِمَّا يَطْعَنُ بِهِ النَّاسُ فِي أَبِي الْعَلَاءِ الْمَعْرِيِّ الْقَيْلَسُوفِ الْعَرَبِيِّ أَنَّهُ كَانَ لَا يَأْكُلُ اللَّحْمَ اسْتِثْبَاحًا لَهُ، وَأَنَّهُ كَانَ يَعُدُّهُ تَوْحُشًا، لَا أَنَّهُ كَانَ يَعَافُهُ بِطَبْعِهِ كَكَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ، وَقَدْ يُشْعِرُ بِهَذَا مَا حُكِيَ عَنْهُ أَنَّهُ مَرِضٌ فَوَصَفَ لَهُ الطَّبِيبُ فُرُوجًا، فَلَمَّا جِيءَ بِهِ مَطْبُوحًا وَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ وَقَالَ: اسْتَضْعَفُوكَ فَوَصَفُوكَ، هَلَا وَصَفُوا شَيْبَلِ الْأَسَدِ؟. وَالْجَوَابُ عَنْ هَذَا: أَنَّ الشَّرَائِعَ الْإِلَهِيَّةَ لَوْ لَمْ تُبَحِّ لِلنَّاسِ أَكْلَ الْحَيَوَانِ لَكَانَ هَذَا الْإِعْتِرَاضُ يَرُدُّ عَلَى نِظَامِ الْخَلْقَةِ؛ لِأَنَّ مِنْ سُنَنِهِ أَنْ يَأْكُلَ بَعْضُ الْحَيَوَانِ بَعْضًا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، فَالْإِنْسَانُ أَجْدَرُ بِأَنْ يَأْكُلَ بَعْضَ الْحَيَوَانِ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ فَضَّلَهُ عَلَى جَمِيعِ أَنْوَاعِ الْحَيَوَانِ وَسَخَّرَهَا لَهُ كَمَا سَخَّرَ لَهُ جَمِيعَ مَا فِي الْأَرْضِ مِنَ الْأَجْسَامِ وَالْقُوَى ؛ لِيَسْتَعِينَ بِذَلِكَ عَلَى مَعْرِفَتِهِ وَعِبَادَتِهِ وَإِظْهَارِ آيَاتِهِ فِي خَلْقِهِ، وَمَا أُوْدِعَ فِيهَا مِنَ الْحِكْمِ وَالْعَجَائِبِ وَاللَّطَائِفِ وَالْمَحَاسِنِ. وَامْتِنَاعُ النَّاسِ عَنْ أَكْلِ مَا يَأْكُلُونَ مِنَ الْحَيَوَانِ كَالْأَنْعَامِ لَا يَعْصِمُهَا مِنَ الْمَوْتِ بِالْمَرَضِ أَوْ التَّرَدِّيِّ، أَوْ فَرَسِ السَّبَاعِ لَهَا، وَرَبَّمَا كَانَتْ كُلُّ مَيْتَةٍ مِنْ هَذِهِ الْمَيْتَاتِ أَهْوَنَ وَأَحْفَ أَلَمًا مِنَ التَّدْكِيَةِ الشَّرْعِيَّةِ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ فِيهَا الْإِحْسَانَ ، وَمُنْتَهَى الْعِنَايَةِ بِالْحَيَوَانِ^(٢).

(١) المراغي ، أحمد مصطفى (ت ١٣٧١هـ) ، تفسير القرآن ، ج ٢ ، ص ١٢ ، شركة مكتبة ومطبعة

مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ، الطبعة الأولى ، ١٣٦٥ هـ .

(٢) رضا ، مُجّد رشيد ، تفسير المنار ، ج ٦ ، ص ١٦٤ .

وفي السورة نفسها عند قوله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) [المائدة: ٣٥] يعقد الشيخ محمد رشيد رضا فصلاً في (التوسل والوسيلة) يبين فيه ضوابط التوسل بالنبي ﷺ ، ويردّ فيها على البدع والعقائد الفاسدة المتعلقة بذلك ، مستدلاً بالآيات والأحاديث الصحيحة وأقوال السلف والخلف ، فقال :

" وَقَدْ حَدَّثَ فِي الْقُرُونِ الْوُسْطَى التَّوَسُّلُ بِأَشْخَاصِ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ الْمُتَّقِينَ ؛ أَي تَسْمِيَتُهُمْ وَسَائِلَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَالْإِقْسَامُ عَلَى اللَّهِ بِهِمْ، وَطَلَبُ قَضَاءِ الْحَاجَاتِ وَدَفْعِ الضَّرِّ وَجَلْبِ النَّفْعِ مِنْهُمْ عِنْدَ قُبُورِهِمْ أَوْ فِي حَالِ الْبُعْدِ عَنْهَا، وَشَاعَ هَذَا وَكَثُرَ حَتَّى صَارَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ يَدْعُونَ أَصْحَابَ الْقُبُورِ فِي حَاجَتِهِمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَوْ يَدْعُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ تَعَالَى، وَ " الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ " - كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - رَوَاهُ أَحْمَدُ وَابْنُ خَالِيٍّ فِي الْأَدَبِ الْمُفْرَدِ وَأَصْحَابُ السُّنَنِ الْأَرْبَعَةِ وَعَبْرَتُهُمْ عَنِ التُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: (فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا) [الجن: ١٨] وَيَقُولُ: (إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادًا أَمْثَلُكُمْ) [الأعراف: ١٩٤] وَيَقُولُ: (وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ) [فاطر: ١٣-١٤] لَكَرَى بَعْضَ الْمُصَنِّفِينَ زَعَمَ أَنَّهُمْ يَسْمَعُونَ وَيَسْتَجِيبُونَ لِلدَّاعِي، وَالْعَوَامُّ يَأْخُذُونَ بِمِثْلِ هَذَا الْقَوْلِ الْمُخَالَفِ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى؛ لِعُمُومِ الْجَهْلِ. وَمِنَ الْمُشْتَعَلِينَ بِالْعِلْمِ مَنْ يَتَأَوَّلُ لَهُمْ بِأَنَّ هَذَا مِنَ التَّوَسُّلِ بِهِمْ، وَقَدْ حَقَّقَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ أَحْمَدُ بْنُ تَيْمِيَّةَ الْمَوْضُوعَ بِجَمِيعِ فُرُوعِهِ، فَكَانَ مَا كَتَبَهُ فِي ذَلِكَ مُصَنَّفًا حَافِلًا أَطْلَقَ عَلَيْهِ اسْمَ (قَاعِدَةُ جَلِيلَةَ فِي التَّوَسُّلِ وَالْوَسِيلَةِ) " (١).

ثم نقل كلام ابن تيمية في التوسل والوسيلة .

(١) رضا ، محمد رشيد ، تفسير المنار ، ج ٦ ، ٣٠٧ .

المطلب الثالث : الاهتمام بمشكلات السياسة ونظام الحكم والدعوة إلى جهاد الأعداء المعتدين

لما أصاب الأمة ما أصابها من الذل والضعف والهوان والظلم والعدوان ، نتيجة الاستعمار الأوروبي للبلاد الإسلامية ، انبرى رجال المدرسة الاجتماعية يحييون في الأمة روح الجهاد ضد المستعمر ، وإصلاح نظام الحكم والسياسة ، وأخذوا يتلمسون الحلول في نصوص القرآن الكريم ، فدعوا في تفاسيرهم إلى إيقاظ الأمة من سباتها ، وبث روح العزيمة والوحدة والكفاح ، مستدلين على كل ذلك بالآيات القرآنية ، يستنبرون بها الطريق ، لدفع الظلم والباطل والعدوان عن الأمة .

ونجد لهذه القضية مساحة كبيرة في تفسير المنار ، فمثلاً عند تفسير قوله تعالى (وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) [البقرة: ٢٤٧] يبين الشيخ محمد رشيد رضا أن شروط استحقاق الملك أربعة شروط ، فيقول :

"الأول : الإِسْتِعْدَادُ الْفِطْرِيُّ . الثاني : السَّعَةُ فِي الْعِلْمِ الَّذِي يَكُونُ بِهِ التَّدْبِيرُ . الثالث : بَسْطَةُ الْجِسْمِ الْمُعَبَّرُ بِهَا عَنْ صِحَّتِهِ وَكَمَالِ قُوَاهُ الْمُسْتَلَزِمِ ذَلِكَ لِصِحَّةِ الْفِكْرِ عَلَى قَاعِدَةٍ ((الْعَقْلُ السَّلِيمُ فِي الْجِسْمِ السَّلِيمِ)) وَلِلشَّجَاعَةِ وَالْقُدْرَةِ عَلَى الْمُدَافَعَةِ وَاللَّهْبَةِ وَالْوَقَارِ . الرابع : تَوْفِيقُ اللَّهِ تَعَالَى الْأَسْبَابَ لَهُ وَهُوَ مَا يُعَبَّرُ عَنْهُ بِقَوْلِهِ: (وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ) وَالِإِسْتِعْدَادُ هُوَ الرُّكْنُ الْأَوَّلُ فِي الْمَرْتَبَةِ فَلِذَلِكَ قَدَّمَهُ، وَالْعِلْمُ بِحَالِ الْأُمَّةِ وَمَوَاضِعِ قُوَّتِهَا وَضَعْفِهَا وَجَوْدَةِ الْفِكْرِ فِي تَدْبِيرِ شُؤْنِهَا، هُوَ الرُّكْنُ الثَّانِي فِي الْمَرْتَبَةِ، فَكَمْ مِنْ عَالِمٍ بِحَالِ زَمَانِهِ

عَبْرَ مُسْتَعَدِّ لِلسُّلْطَةِ اتَّخَذَهُ مَنْ هُوَ مُسْتَعَدُّ لَهَا سِرَاجًا يَسْتَضِيءُ بِرَأْيِهِ فِي تَأْسِيسِ مَمْلَكَةٍ أَوْ سِيَاسَتِهَا، وَلَمْ يَنْهَضْ بِهِ رَأْيُهُ إِلَى أَنْ يَكُونَ هُوَ السَّيِّدُ الرَّعِيمُ فِيهَا، وَكَمَالُ الْجِسْمِ فِي قُوَاهُ وَرِوَاثِهِ هُوَ الرُّكْنُ الثَّلَاثُ فِي الْمَرْتَبَةِ، وَهُوَ فِي النَّاسِ أَكْثَرُ مِنْ سَابِقِيهِ. وَأَمَّا الْمَالُ فَلَيْسَ بِرُكْنٍ مِنْ أَرْكَانِ تَأْسِيسِ الْمُلْكِ؛ لِأَنَّ الْمَرْأِيَا الثَّلَاثَ إِذَا وُجِدَتْ سَهَّلَ عَلَى صَاحِبِهَا الْإِتْيَانُ بِالْمَالِ، وَإِنَّا لَنَعْرِفُ فِي النَّاسِ مَنْ أَسَسَ دَوْلَةً وَهُوَ فَقِيرٌ أُمِّيٌّ، وَلَكِنَّ اسْتِعْدَادَهُ وَمَعْرِفَتَهُ بِحَالِ الْأُمَّةِ الَّتِي سَادَهَا، وَشَجَاعَتَهُ كَانَتْ كَافِيَةً لِلِاسْتِيْلَاءِ عَلَيْهَا وَالِاسْتِعَانَةَ بِأَهْلِ الْعِلْمِ بِالْإِدَارَةِ وَالشُّجْعَانَ عَلَى تَمَكِينِ سُلْطَتِهِ فِيهَا، وَقَدْ قَدَّمَ الْأَرْكَانَ الثَّلَاثَةَ عَلَى الرَّابِعِ؛ لِأَنَّهَا تَتَعَلَّقُ بِمَوَاهِبِ الرَّجُلِ الَّذِي اخْتِيرَ مَلِكًا فَأَنْكَرَ الْقَوْمُ اخْتِيَارَهُ فَهِيَ الْمَقْصُودَةُ بِالْجَوَابِ، وَأَمَّا تَوْفِيقُ اللَّهِ تَعَالَى بِتَسْخِيرِ الْأَسْبَابِ الَّتِي لَا عَمَلَ لَهُ فِيهَا لِسَعْيِهِ فَلَيْسَ مِنْ مَوَاهِبِهِ وَمَرْأِيَاهُ فَتَقَدَّمَ فِي أَسْبَابِ اخْتِيَارِهِ، وَإِنَّمَا تُذَكَّرُ تَبِيئَةً لِلْفَائِدَةِ وَبَيَانًا لِلْحَقِيقَةِ؛ وَلِذَلِكَ ذُكِرَتْ قَاعِدَةٌ عَامَّةٌ لَا وَصْفًا لَهُ «(١)» .

ثم يتابع فيقول : " نَعَمْ إِذَا أَرَادَ اللَّهُ إِسْعَادَ أُمَّةٍ جَعَلَ مَلِكَهَا مُقَوِّيًا لِمَا فِيهَا مِنْ الْإِسْتِعْدَادِ لِلْخَيْرِ، حَتَّى يَغْلِبَ خَيْرُهَا عَلَى شَرِّهَا، فَتَكُونُ سَعِيدَةً، وَإِذَا أَرَادَ إِهْلَاكَ أُمَّةٍ جَعَلَ مَلِكَهَا مُقَوِّيًا لِدَوَاعِي الشَّرِّ فِيهَا حَتَّى يَتَغَلَّبَ شَرُّهَا عَلَى خَيْرِهَا، فَتَكُونُ شَقِيَّةً ذَلِيلَةً، فَتَعْدُوا عَلَيْهَا أُمَّةٌ قَوِيَّةٌ، فَلَا تَزَالُ تَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا، وَتُفْتَنَاتُ عَلَيْهَا فِي أُمُورِهَا، أَوْ تُنَاجِزُهَا الْحَرْبُ حَتَّى تُزِيلَ سُلْطَانَهَا مِنَ الْأَرْضِ، يُرِيدُ اللَّهُ تَعَالَى ذَلِكَ فَيَكُونُ بِمُقْتَضَى سُنَنِهِ فِي نِظَامِ الْاجْتِمَاعِ، فَهُوَ يُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ يَشَاءُ وَيَنْزِعُهُ مِمَّنْ يَشَاءُ. بَعْدِلٍ وَحِكْمَةٍ، لَا يَظْلَمُ وَلَا عَبَثٌ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ: (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ) [الأنبياء: ١٠٥] وَقَالَ: (إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) [الأعراف: ١٢٨] فَالْمُتَّقُونَ فِي هَذَا الْمَقَامِ - مَقَامِ اسْتِعْمَارِ الْأَرْضِ وَالسِّيَادَةِ فِي الْمَمَالِكِ - هُمُ الَّذِينَ يَتَّقُونَ أَسْبَابَ خَرَابِ الْبِلَادِ وَضَعْفِ الْأُمَمِ، وَهِيَ الظُّلْمُ فِي الْحُكْمِ، وَالْجَهْلُ وَفَسَادُ الْأَخْلَاقِ فِي الدَّوْلَةِ وَالْأُمَّةِ، وَمَا يَتَّبِعُ ذَلِكَ مِنَ التَّفَرُّقِ وَالتَّنَازُعِ وَالتَّحَادُلِ، وَالصَّالِحُونَ فِي هَذَا الْمَقَامِ هُمُ الَّذِينَ يَصْلُحُونَ لِاسْتِعْمَارِ الْأَرْضِ وَسِيَاسَةِ الْأُمَمِ بِحَسَبِ اسْتِعْدَادِهَا الْاجْتِمَاعِيِّ

(١) رضا، محمد رشيد، تفسير المنار، ج ٢، ص ٣٧٨ .

«(١)»

ولأهمية هذا الموضوع ، نجد الشيخ رضا يعقد فصلاً (للسنن الاجتماعية في القرآن والأمم والاستقلال) ، يتحدث فيها عن نظرة الإسلام إلى الحاكم ، وأسباب قوّة ملكه وضعفه^(٢).

وعلى الجانب الآخر ، نرى الشيخ رضا يتصدى في تفسيره لكثير من الهجمات الاستعمارية ، ويحذر من حالة الركود والاستسلام ، ويدعو إلى وجوب الجهاد عينياً على المسلمين ، فمثلاً عند تفسير قوله تعالى (فَاتْلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ) [التوبة: ٢٩] يعقد فصلاً عن دار الإسلام ، ووجوب الجهاد عينياً على المسلمين إذا استولي على شيء منها ، يقول فيه :

" إِنَّ الْحَرْبِيْنَ إِذَا هَاجَمُوا دَارَ الْإِسْلَامِ وَاسْتَوْلَوْا عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا صَارَ الْقِتَالُ فَرْضًا عَيْنِيًّا عَلَى الْمُسْلِمِينَ، فَإِذَا أَعْلَنَ الْإِمَامُ النَّفِيرَ الْعَامَّ وَجَبَ عَلَى كُلِّ فَرْدٍ مِنْهُمْ أَنْ يُطِيعَهُ بِمَا يَفْقَهُ عَلَيْهِ مِنَ الْجِهَادِ بِنَفْسِهِ وَبِمَالِهِ، وَتَجِبُ طَاعَتُهُ فِيمَا دُونَ ذَلِكَ بِالْأَوْلَى كَأَنْ يَسْتَنْفِرَ بَعْضُهُمْ دُونَ بَعْضٍ، وَيَفْرِضَ الْمَالَ النَّاطِقَ وَالصَّامِتَ عَلَى بَعْضِ النَّاسِ دُونَ بَعْضٍ، عَلَى مَا يَجِبُ عَلَيْهِ فِي هَذَا وَغَيْرِهِ مِنْ مُرَاعَاةِ الْعَدْلِ. وَهَذَا الْحُكْمُ هُوَ الَّذِي بَحَّرِي عَلَيْهِ الدُّوَلُ الْأَوْرُوبِيَّةُ وَغَيْرُهَا فِي هَذَا الْعَصْرِ، وَإِنَّمَا أَعَدْنَا ذِكْرَهُ لِنُذَكِّرَ الْمُسْلِمِينَ وَغَيْرَ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْعَارِفِينَ بِأَحْكَامِ الْإِسْلَامِ بِأَنَّ السُّكُوتَ عَنْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَطُولَ بَعْدَ أَنْ اسْتَيْقَظَ الْعَالَمُ الْإِسْلَامِيُّ كَعَيْرِهِ مِنْ شُعُوبِ الشَّرْقِ مِنْ رُقَادِهِ الطَّوِيلِ، وَطَفِقَ يَبْحَثُ فِي مَاضِيهِ وَحَاضِرِهِ، وَمَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ فِي مُسْتَقْبَلِهِ، وَهَاتِفُ الْإِيمَانِ يَهْتَفُ فِي أَعْمَالِ سَرِيرَتِهِ مُذَكِّرًا إِيَّاهُ بِمَا أَوْجَبَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ إِعَادَةِ تِلْكَ الدَّارِ الْوَاسِعَةِ، أَوْ الْمَمَالِكِ الشَّاسِعَةِ، وَإِقَامَةِ تِلْكَ الشَّرِيعَةِ الْعَادِلَةِ، وَإِحْيَاءِ تِلْكَ الْهَدَايَةِ الشَّامِلَةِ لِتُضْيِءَ لِلْبَشَرِ الطَّرِيقَ لِلْخُرُوجِ مِنْ ظُلُمَاتِ هَذَا الْاضْطِرَابِ النَّفْسِيِّ، وَالْفَوْضَى الْجَمَاعِيَّةِ، وَالسَّرَفِ الشَّهْوَائِيِّ، الَّتِي أَحَدَتْهَا الْأَفْكَارُ الْمَادِّيَّةُ

(١) رضا ، مُجَدِّدِ رَشِيدِ ، تَفْسِيرِ الْمَنَارِ ، ج ٢ ، ص ٣٨٠ .

(٢) انظر : رضا ، مُجَدِّدِ رَشِيدِ ، تَفْسِيرِ الْمَنَارِ ، ج ٢ ، ص ٣٨٩ .

وَنَزَعَاتُ الْإِلْحَادِ وَالْحُكْمُ الْبُلْشَفِيُّ الَّذِي هُوَ شَرُّ نَتَائِجِهَا، فَقَدْ عَجَزَتْ بَقَايَا هِدَايَةِ النَّصْرَانِيَّةِ عَنْ صَدِّ غِشْيَانِ هَذِهِ الظُّلْمَاتِ لِأَعْظَمِ مَمَالِكِهَا، بَعْدَ أَنْ نَارَتْ سُحُبُهَا مِنْ أَفْقِ مَدَارِسِهَا، فَكَيْفَ تَقْوَى عَلَى تَفْشِيحِ هَذِهِ السُّحُبِ بَعْدَ تَكَاثُفِهَا، وَقَدْ كَانَتْ هِيَ نَفْسُهَا مِنْ أَسْبَابِ حُدُوثِهَا ؟ ... «(١)» .

ويشير الشيخ شلتوت إلى أنّ عناصر القوة المادية لا تقف عند حدّ ، فيرى أن القوة في قوله تعالى (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْحَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ) [الأنفال: ٦٠]

" كلمة تتسع لكل ما عُرف ويُعرف من آلات الحرب ، ومن جميع ما يتوقف عليه النصر ، والرباط : كلمة تتسع لكل ما عرف ويعرف في تحصين الثغور ، ومداخل البلاد ، مما يتحقق به إرهاب العدو من قوة المسلمين " «(٢)» .

المطلب الرابع : الاهتمام بذكر السنن الأخلاقية والتحذير من الرذيلة

نظراً لتأثر العالم الإسلامي بموجة الغرب المادية في مطلع القرن العشرين الميلادي ، اهتم أصحاب المدرسة الاجتماعية في التفسير بالجانب الأخلاقي ، وأولوه عناية خاصة في تفاسيرهم ، لأنه الأساس الذي يقوم عليه الإنسان والمجتمع .

تحدث القرآن الكريم كثيراً عن السنن الأخلاقية وأثرها في الأمم والشعوب ، وكان للمدرسة الاجتماعية النصيب الأوفى في بيان هذه السنن ، وما لها من أثر في تقدم الأمم وقوتها إذا هي تمسكت بفضائل الأخلاق ، أو في تخلف هذه الأمم وضعفها وهلاكها إذا هي أخلّت بنظام الأخلاق وفضائلها .

ومن هنا نجد الشيخ مُجَدِّد رشيد رضا يركز على هذا الجانب في تفسيره ، فمثلاً عند

(١) رضا ، مُجَدِّد رشيد ، تفسير المنار ، ج ١٠ ، ص ٢٧٥ .

(٢) شلتوت ، محمود ، تفسير القرآن ، ص ٢٤٦ .

تفسير قوله تعالى (وَكَمْ مِنْ قَرِيْبَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بِأَسْنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ (٤) فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسْنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ) [الأعراف: ٥-٦] يتحدث عن أثر الذنب على الفرد والمجتمع من الناحية الاجتماعية ، وكذلك الأثر السيئ للظلم على المستويين الفردي والاجتماعي ، فيقول :

" وَالْعِبْرَةُ فِي الْآيَةِ: أَنَّ كُلَّ مُذْنِبٍ يَقَعُ عَلَيْهِ عِقَابٌ ذَنْبِهِ فِي الدُّنْيَا يَنْدَمُ وَيَتَحَسَّرُ وَيَعْتَرِفُ بِظُلْمِهِ وَجُرْمِهِ إِذَا عَلِمَ أَنَّهُ هُوَ سَبَبُ الْعِقَابِ، وَمَا كُلُّ مُعَاقِبٍ يَعْلَمُ ذَلِكَ لِأَنَّ مِنَ الذُّنُوبِ مَا يَجْهَلُ أَكْثَرُ النَّاسِ أَنَّهُ سَبَبٌ لِلْعِقَابِ، وَأَمَّا الذُّنُوبُ الَّتِي مَضَتْ سُنَّةَ اللَّهِ تَعَالَى يَجْعَلُ عِقَابَهَا أَثْرًا لَا رِمًا لَهَا فِي الدُّنْيَا فَلَا تَطْرُدُ فِي الْأَفْرَادِ كَأَطْرَادِهَا فِي الْأُمَّمِ، وَلَا تَكُونُ دَائِمًا مُتَّصِلَةً بِالْإِعْتِرَافِ بِالذَّنْبِ، بَلْ كَثِيرًا مَا تَفْعُ عَلَى التَّرَاحِي فَلا يَشْعُرُ فَاعِلُهَا بِأَنَّهَا أَثْرٌ لَهُ، مِثَالُ ذَلِكَ أَنَّ مَا يَتَوَلَّدُ مِنْ شُرْبِ الْخُمْرِ مِنَ الْأَمْرَاضِ وَالْأَلَامِ لَا يَعْرِفُ أَكْثَرُ السُّكَارَى مِنْهُ غَيْرَ مَا يَعْتَبُ الشُّرْبَ مِنَ صُدَاعٍ وَعَثْيَانٍ، وَهُوَ مِمَّا يَسْهُلُ عَلَيْهِمْ اخْتِمَالُهُ وَتَرْجِيحُ لَدَّةِ النَّشْوَةِ عَلَيْهِ، وَأَمَّا مَا يُؤَلِّدُهُ السُّكْرُ مِنَ أَمْرَاضِ الْقَلْبِ وَالْكَبِدِ وَالْجِهَازِ التَّنَاسُلِيِّ، وَمَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ مِنْ ضَعْفِ النَّسْلِ وَاسْتِعْدَادِهِ لِلْأَمْرَاضِ وَانْقِطَاعِهِ أحيانًا وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَمْرَاضِ الْجَسَدِيَّةِ وَالْعَصَبِيَّةِ (العقلية) فَهِيَ تَحْصُلُ بِبُطْءٍ، وَقَلَمًا يَعْلَمُ غَيْرُ الْأَطْبَاءِ أَنَّهَا مِنْ تَأْثِيرِ السُّكْرِ. ثُمَّ قَلَمًا يُفِيدُ الْعِلْمَ بِهَا بَعْدَ بُلُوغِ تَأْثِيرِهَا هَذِهِ الدَّرَجَةَ أَنْ تَحْمِلَ السُّكُورَ عَلَى التَّوْبَةِ؛ لِأَنَّ دَاءَ الْخُمَارِ يُزْمِنُ وَحُبَّ السُّكْرِ يُضَعِّفُ الْإِرَادَةَ، وَمَضَارُّ الرِّزَا الْجَسَدِيَّةُ أَحْفَى مِنْ مَضَارِّ الْخُمْرِ وَالْمَيْسِرِ، وَمَقَاسِدُهُ الْاجْتِمَاعِيَّةُ أَحْفَى مِنْ مَضَارِّهِ الْجَسَدِيَّةِ، فَمَا كُلُّ أَحَدٍ يَقْطِنُ لَهَا. وَيَا لَيْتَ كُلِّ مَنْ عَلِمَ بِضَرَرِ ذَنْبِهِ بَعْدَ وَفُوعِهِ يَرْجِعُ عَنْهُ وَيَتَرُكُهُ وَيَتُوبُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْهُ، وَلَا يَكْتَفِي بِالْإِعْتِرَافِ بِظُلْمِهِ، وَلَا بِالْإِقْرَارِ بِذَنْبِهِ، فَإِنَّ هَذِهِ لَا فَائِدَةَ لَهُ فِيهِ لَا فِي دُنْيَاهُ، وَلَا فِي دِينِهِ، وَإِذَا كَانَ الرَّاسِخُ فِي الْفِسْقِ لَا يَتُوبُ مِنْ ذَنْبٍ وَقَعَ عَلَيْهِ ضَرَرُهُ وَعَلِمَ بِهِ، فَكَيْفَ يَتُوبُ مِنْ ذَنْبٍ لَمْ يُصِبْهُ مِنْهُ ضَرَرٌ أَوْ أَصَابَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَدْرِي بِهِ؟ إِنَّمَا تَسْهُلُ التَّوْبَةُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ، وَإِلَّا فَهِيَ لِأُولِي الْعَزَائِمِ الْقَوِيَّةِ الَّذِينَ تَفْهَرُ إِزَادَتُهُمْ شَهَوَاتِهِمْ فَهُمْ الْأَقْلُونَ. وَأَمَّا ذُنُوبُ الْأُمَّمِ فَعِقَابُهَا فِي الدُّنْيَا مُطَرِّدٌ، وَلَكِنَّهَا آجَالًا وَمَوَاقِيتَ أَطُولُ مِنْ مِثْلِهَا فِي ذُنُوبِ الْأَفْرَادِ، وَتُخْتَلَفُ بِاخْتِلَافِ أَحْوَالِهَا فِي الْقُوَّةِ وَالضَّعْفِ كَمَا تُخْتَلَفُ

فِي الْأَفْرَادِ بَلْ أَشَدُّ، فَإِذَا ظَهَرَ الظُّلْمُ وَاحْتِلَالُ النِّظَامِ وَنَشَأَ التَّرَفُ وَمَا يَلْزِمُهُ مِنَ الْفِسْقِ وَالْفُجُورِ فِي أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ تَمْرُسُ أَحْلَافُهَا فَتَسُوهُ أَعْمَالُهَا وَنَنَحِلُ قُؤَاهَا، وَيَفْسُدُ أَمْرُهَا وَتَضَعُفُ مَنَعَتُهَا، وَيَتَمَرَّقُ نَسِيجُ وَحَدَتِهَا، حَتَّى تُحْسَبَ جَمِيعًا وَهِيَ شَيْءٌ - فَيُعْرِِي ذَلِكَ بَعْضُ الْأُمَمِ الْقَوِيَّةِ بِهَا، فَتَسْتَوِي عَلَيْهَا، وَتَسْتَأْتِرُ بِحَيْرَاتِ بِلَادِهَا، وَتَجْعَلُ أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَدْلَةً. فَهَذِهِ سُنَّةٌ مُطَرَّدَةٌ فِي الْأُمَمِ عَلَى تَفَاوُتِ أَمْرِيَّتِهَا وَقُؤَاهَا، وَقَلَّمَا تَشْعُرُ أُمَّةٌ بِعَاقِبَةِ ذُنُوبِهَا قَبْلَ وَقُوعِ عِقُوبَتِهَا، وَلَا يَنْفَعُهَا بَعْدَهُ أَنْ يَقُولَ الْعَارِفُونَ: يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ" (١).

وعند تفسير قوله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ) (٢٠٨) فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) [البقرة: ٢٠٨-٢٠٩] يتحدث الشيخ أحمد المراغي في تفسيره عن أثر اتباع خطوات الشيطان ، وأن الأمة لن توفق ولن تقوم لها قائمة إلا بالأعمال الصالحة والتحلي بفضائل الأخلاق ، فيقول :

" (فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) أي فإن حدثم عن صراط الله وهو السلم، وسرتم في طريق الشيطان وهي طريق الخلاف والافتراق، بعد أن بين لكم عداوته، ونهاكم عن اتباع طرقه وخطواته، فاعلموا أن الله يأخذكم أخذ عزيز مقتدر، فهو عزيز لا يغلب على أمره، حكيم لا يهمل شأن خلقه، ولحكيمته قد وضع تلك السنن في الخليقة، فجعل لكل ذنب عقوبة، وجعل العقوبة على ذنوب الأمم ضربة لازب في الدنيا، ولم يؤخرها حتى تحلّ بها في الحياة الأخرى. ولا تقوم للأمم قائمة إلا إذا أقامت العدل بين أفرادها، وكانت صالحة لعمارة الأرض كما قال تعالى: (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ) [الأنبياء: ١٠٥] . وهكذا الأفراد إذا لم ينهجوا النهج السويّ ويتحلّوا بفاضل الأخلاق، فلن يوفقوا في دنياهم ولا في آخراهم" (٢).

ونجد الشيخ المراغي أيضاً يتحدث عن أثر الفتنة والفرقة على المستوى الاجتماعي ،

(١) رضا ، مجّد رشيد ، تفسير المنار ، ج ٨ ، ٢٧٧-٢٧٨

(٢) المراغي ، التفسير ، ج ٢ ، ص ١١٥ .

فعند تفسير قوله تعالى (وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) [الأنفال: ٢٥] يقول الشيخ المراغي :

" الفتنة: البلاء والاختبار، أي اتقوا وقوع الفتن التي لا تختص إصابتها بمن يباشرها وحده، بل تعمه وغيره كالفتن القومية التي تقع بين الأمم في التنارع على المصالح العامة من الملك والسيادة أو التفرق في الدين والشريعة والانقسام إلى الأحزاب الدينية والأحزاب السياسية، ونحو ذلك من ظهور البدع والتكاسل في الجهاد وإقرار المنكر الذي يقع بين أظهرهم والمداهنة في الأمر بالمعروف ونحو ذلك من الذنوب التي جرت سنة الله بأن تعاقب عليها الأمم في الدنيا قبل الآخرة" (١).

المطلب الخامس : الاهتمام بالقضايا الاقتصادية

اشتمل القرآن الكريم على نظام اقتصادي ، بما يكفل العدل الاجتماعي والمالي للناس ، فيعيشون في المجتمع بأمن وطمأنينة ، لأن الفقير فيه لا يشعر بالظلم والتداني ، والغني فيه لا يشعر بالكبر والتعالي .

إن النظام الاقتصادي في الإسلام يدعو إلى التكافل الاجتماعي في أرفع مستويات الحضارة من الشعور بالحب والرضا والانسجام ، فتذوب من خلاله الفوارق الطبقيّة والمادية والاجتماعية بلا حقد أو حسد أو ضغينة .

إن الحالة الاقتصادية المتدهورة للعالم الإسلامي في مطلع القرن العشرين ، جعل المفسرين يقفون طويلاً أمام النصوص القرآنية المتعلقة بالاقتصاد ، يستلهمون منها جوهر العدل والرحمة ، بما يحقق التكافل الاجتماعي بين أفراد المجتمع ، والقضاء على مشكلة الفقر ، ووضع ميزان الاعتدال في الإنفاق .

ومن هنا نرى الشيخ مُجَّد رشيد رضا يقف طويلاً عند الآيات التي تكشف منهج الإسلام في سياسة الأموال ، فمثلاً عند تفسير قوله تعالى (حُدِّ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةٌ تُطَهِّرُهُمْ

(١) المراغي ، التفسير ، ج ٩ ، ص ١٨٨-١٨٩ .

وَتَزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلَّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (التوبة: ١٠٣) يعقد لذلك فصلاً متعددة عدّها منها :

إِفْرَازُ الْمَلِكِيَّةِ الشَّخْصِيَّةِ وَتَحْرِيمُ أَكْلِ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ . وَتَحْرِيمُ الرِّبَا وَالْقِمَارِ . وَمَنْعُ جَعْلِ الْمَالِ دَوْلَةً بَيْنَ الْأَعْيُنَاءِ . وَالْحَجْرُ عَلَى السُّفَهَاءِ فِي أَمْوَالِهِمْ ، حَتَّى لَا يُضَيِّعُوهَا فِيمَا يَضُرُّهُمْ وَيَضُرُّ أُمَّتَهُمْ . وَفَرَضُ الزَّكَاةِ . وَفَرَضُ نَفَقَةِ الزَّوْجِيَّةِ وَالْقَرَابَةِ . وَإِيجَابُ كِفَايَةِ الْمُضْطَرِّ مِنْ كُلِّ جِنْسٍ وَدِينٍ . وَجَعْلُ بَدْلِ الْمَالِ كَفَّارَةً لِبَعْضِ الذُّنُوبِ . وَنَدْبُ صَدَقَاتِ التَّطَوُّعِ وَالتَّرْغِيبُ فِيهَا . وَدَمُّ الْإِسْرَافِ وَالتَّبْدِيرِ ، وَالبُخْلِ وَالتَّشْحِ وَالْتَفْتِيرِ ، وَعَدَّهُ مِنْ أَسْبَابِ الْهَلَكَةِ وَسُوءِ الْمَصِيرِ ، أَيْ لِلْأَفْرَادِ وَالْأُمَّةِ وَالدَّوْلَةِ . وَإِبَاحَةُ الزَّيْنَةِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ بِشَرْطِ اجْتِنَابِ الْإِسْرَافِ وَالحَيْلَاءِ الْمُوقَعِينَ فِي الْأَمْرَاضِ وَالْأَدْوَاءِ الْبَدَنِيَّةِ ، الْمُضْطَّعِينَ لِلثَّرْوَةِ الْمَالِيَّةِ ، الْمُثْبِرِينَ لِلْحَسَدِ وَالْعَدَاوَةِ وَالْمَفَاسِدِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ ، وَهِيَ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ تَرْقِي الثَّرْوَةِ . وَمَدْخُ الْقَصْدِ وَالِاعْتِدَالِ ، فِي التَّفَقُّهِ عَلَى النَّفْسِ وَالْعِيَالِ ^(١) .

ثم يقول بعد ذلك : " أَرَأَيْتَ أُمَّةً مِنَ الْأُمَّمِ تُقِيمُ هَذِهِ الْأَرْكَانَ وَيُوجَدُ فِيهَا فَقْرٌ مُدْقِعٌ ، أَوْ عُرْمٌ مُوجِعٌ ، أَوْ شَقَاءٌ مُفْطِعٌ ؟ " ^(٢) .

وعند الآية نفسها نجد الشيخ أحمد المراغي يفرد بحثاً بعنوان (فوائد الصدقات في إصلاح المجتمع الإسلامي) يقول فيه :

" الصدقات تطهر أنفس الأفراد من أرجاس البخل، والدناءة والاثرة، والطمع والجشع، وتبعدهم عن أكل أموال الناس بالباطل من خيانة وسرقة وغصب وربا، وغير ذلك: فإن من يتعود بذل بعض ما في يده أو ما أودعه في خزائنه في سبيل الله ابتغاء مرضاته ومغفرة ذنوبه - يكن أرفع نفساً من أن يأخذ مال غيره بغير حق، وإذا طهرت أنفس الأفراد وزكت بالعلم والتقوى وهما ثمرة الإيمان طهرت جماعة المؤمنين من أرجاس الرذائل الاجتماعية التي هي مثار التحاسد والتعادي والبغي والعدوان والفتن والحروب، فإن الأموال قوام الحياة المعيشية للفرد

(١) انظر : رضا ، مُجَدِّدِ رَشِيدِ ، تَفْسِيرِ الْمَنَارِ ، ج ١١ ، ص ٢٤-٢٥ .

(٢) رضا ، مُجَدِّدِ رَشِيدِ ، تَفْسِيرِ الْمَنَارِ ، ج ١١ ، ص ٢٦ .

والمجتمع، فهي مثار التنازع والتخاصم، ومن ثم أوجب الدين على أصحاب الأموال من النفقات والصدقات ما يجعل الثروات وسيلة للسلام لا إلى الخصام. وقد جمع الإسلام بين مصالح الروح والجسد للوصول إلى السيادة في الدنيا والسعادة في الآخرة، فهو وسط بين اليهودية المفرطة في حب المال، والنصرانية الروحانية الزاهدة، فمن أهم مقاصده الإصلاحية في الاجتماع البشرى هداية الناس إلى العدل في أمر المال ليتعدوا عن شر طغيان الأغنياء على الفقراء، ونصوص الدين في هذا الباب هي الغاية التي لا يطمح مصلح في التطلع إلى ما بعدها، وهي هادمة لمزاعم من يفتات على الإسلام من أرباب الجهل والهوى^(١).

المطلب السادس : الاهتمام بقضايا المرأة

إن النساء شقائق الرجال ، ولا شك أن للمرأة دوراً تؤديه في المجتمع إلى جانب الرجل ، لكن بما يتناسب مع وظيفتها وفطرتها ، وبما لا يتعارض مع تعاليم الإسلام . ولما كان للمرأة دور كبير في المجتمع ، فقد جند الاستعمار جنوده لإفساد المرأة ، وإخراجها عن وظيفتها وفطرتها ، بدعوى الحرية والمساواة ، فوجهوا سهامهم المسمومة نحو المجتمع المسلم ، لينالوا من المرأة ، لأنه إن تحقق لهم ذلك فقد هدموا المجتمع ، وأتوا على ركنه الحصين ، وأفسدوا عقده المتين .

ولهذا فقد كانت الحاجة ماسّة إلى وجود المصلحين ، ليعيدوا الأمور إلى نصابها ، فبرز رجال المدرسة الاجتماعية - فيمن برز من المصلحين - يتناولون الآيات التي لها صلة بالمرأة ، وأخذوا يفسرونها تفسيراً اجتماعياً ، يصلحون في ضوئها ما أفسده الاستعمار من أحوال المرأة ، خاصة فيما يتعلق بحق المساواة ، والعلاقة الزوجية ، ومسألة الطلاق ، وتعدد الزوجات ، والتعليم ، والميراث ، والمشاركة في الحياة العامة ، وما إلى ذلك من الموضوعات التي تخص المرأة .

يقول الدكتور عفت الشرقاوي : " لقيت قضية المرأة في تفسير المحدثين اهتماماً كبيراً ، فقد ارتبطت حركة النهضة باتجاهين أساسيين ، كلن لكل واحد منهما رأيه الخاص ، وأثره

(١) المراغي ، التفسير ، ج ١١ ، ص ١٨ .

الفعال في توجيه الكلام في قضية المرأة ، أما الاتجاه الأول : فقد نشأ تأثراً بمكانة المرأة في المدنية الأوروبية ، وتقديراً لدورها فيها . وأما الاتجاه الثاني : فقد بدأ تنبيهاً إلى مكانة المرأة العالمية في الإسلام ، واستجابة لتفسير تراثنا الإسلامي تفسيراً صادقاً ، يكشف عن هذه المكانة ^(١) .

لقد حظيت قضايا المرأة باهتمام كبير لدى المفسرين أصحاب المدرسة الاجتماعية ، خاصة تفسير المنار ، فوجد الشيخ محمد رشيد رضا يعقد في تفسيره فصلاً مطوّلاً ، يتحدث فيها عن قضايا المرأة .

فمثلاً عند حديثه عن الْمُفْصِدِ النَّاسِغِ مِنْ فِقْهِ الْقُرْآنِ ، نجده يعقد فصلاً عن حقوق المرأة بعنوان (إِعْطَاءُ النِّسَاءِ جَمِيعَ الْخُفُوقِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَالِدِينِيَّةِ وَالْمَدِينِيَّةِ) يقول فيه : "كَانَ النِّسَاءُ قَبْلَ الْإِسْلَامِ مَظْلُومَاتٍ مُتَهَنَاتٍ مُسْتَعْبَدَاتٍ عِنْدَ جَمِيعِ الْأُمَمِ وَفِي جَمِيعِ شَرَائِعِهَا وَقَوَانِينِهَا، حَتَّى عِنْدَ أَهْلِ الْكِتَابِ، حَتَّى جَاءَ الْإِسْلَامُ، وَأَكْمَلَ اللَّهُ دِينَهُ بِنِعْمَةِ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ، فَأَعْطَى اللَّهُ النِّسَاءَ بِكِتَابِهِ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَيْهِ، وَبَسُنْنِهِ الَّتِي بَيَّنَّ بِهَا كِتَابَ اللَّهِ تَعَالَى بِالْقَوْلِ وَالْعَمَلِ، جَمِيعَ الْخُفُوقِ الَّتِي أَعْطَاهَا لِلرِّجَالِ، إِلَّا مَا يَفْتَضِيهِ اخْتِلَافُ طَبِيعَةِ الْمَرْأَةِ وَوُضَائِفُهَا النَّسَوِيَّةِ مِنَ الْأَحْكَامِ، مَعَ مُرَاعَاةِ تَكْرِيمِهَا وَالرَّحْمَةِ بِهَا وَالْعَطْفِ عَلَيْهَا، حَتَّى كَانَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ: ((مَا أَكْرَمَ النِّسَاءَ إِلَّا كَرِيمٌ، وَلَا أَهَانَهُنَّ إِلَّا لَيْمٌ)) رَوَاهُ ابْنُ عَسَاكِرٍ مِنْ حَدِيثِ عَلِيٍّ . وَإِنِّي أُشِيرُ هُنَا إِلَى أَهَمِّ أُصُولِ الْإِصْلَاحِ النَّسَوِيِّ الَّتِي بَسَطْتُهَا بِكِتَابٍ وَسِيطٍ فِي ((خُفُوقِ النِّسَاءِ فِي الْإِسْلَامِ)) بَيَّنْتُ فِي مُقَدِّمَتِهِ حَالَهُنَّ قَبْلَ الْبُعْتَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ عِنْدَ أُمَّمِ الْأَرْضِ إِجْمَالًا بِقَوْلِي: ((كَانَتِ الْمَرْأَةُ تُشْتَرَى وَتُبَاعُ، كَالْبَهِيمَةِ وَالْمَتَاعِ، وَكَانَتْ تُكْرَهُ عَلَى الزَّوْجِ وَعَلَى الْبِعَاءِ، وَكَانَتْ تُورَثُ وَلَا تَرِثُ، وَكَانَتْ تُمْلِكُ وَلَا تَمْلِكُ، وَكَانَ أَكْثَرُ الَّذِينَ يَمْلِكُونَهَا يَحْجُرُونَ عَلَيْهَا التَّصَرُّفَ فِيمَا تَمْلِكُهُ بِدُونِ إِذْنِ الرَّجُلِ، وَكَانُوا يَرُونَ لِلزَّوْجِ الْحَقَّ فِي التَّصَرُّفِ بِمَا لَهَا مِنْ دُونِهَا، وَقَدْ اخْتَلَفَ الرَّجَالُ فِي بَعْضِ الْبِلَادِ فِي كَوْنِهَا إِنْسَانًا دَا نَفْسٍ وَزَوْجٍ خَالِدَةٍ كَالرَّجُلِ أَمْ لَا؟ وَفِي كَوْنِهَا تُلْفَنُ الدِّينَ

(١) الشرقاوي ، قضايا إنسانية في أعمال المفسرين ، ص ١٨٦ .

وَتَصِحُّ مِنْهَا الْعِبَادَةُ أَمْ لَا؟ وَفِي كَوْنِهَا تَدْخُلُ الْجَنَّةُ أَوْ الْمَلَكُوتُ فِي الْأَحْرَةِ أَمْ لَا؟ فَفَقَّرَ أَحَدُ الْمَجَامِعِ فِي رُومِيَّةٍ أَنَّهَا حَيَوَانٌ نَجَسٌ لَا رُوحَ لَهُ وَلَا خُلُودَ، وَلَكِنْ يَجِبُ عَلَيْهَا الْعِبَادَةُ وَالْحِدْمَةُ، وَأَنْ يُكَمَّمَتْ فَمَهَا كَالْبَعِيرِ وَالْكَلْبِ الْعُقُورِ لِمَنْعِهَا مِنَ الضَّحِكِ وَالْكَلامِ، لِأَنَّهَا أُحْبِوْلُهُ الشَّيْطَانِ، وَكَانَتْ أَعْظَمُ الشَّرَائِعِ تُبِيحُ لِلْوَالِدِ بَيْعَ ابْنَتِهِ، وَكَانَ بَعْضُ الْعَرَبِ يَرُونَ أَنَّ لِلْأَبِ الْحَقَّ فِي قَتْلِ ابْنَتِهِ بَلْ فِي وَادِيهَا - دَفِنَهَا حَيَّةً - أَيْضًا. وَكَانَ مِنْهُمْ مَنْ يَرَى أَنَّهَا لَا قِصَاصَ عَلَى الرَّجُلِ فِي قَتْلِ الْمَرْأَةِ وَلَا دِيَّةً)). وَكَتَبْتُ فِي مُقَدِّمَةِ الْكَلَامِ عَلَى حُقُوقِ النِّسَاءِ الْمَالِيَّةِ فِي الْإِسْلَامِ مَا مُحْتَضَرُهُ: ((قَدْ أَبْطَلَ الْإِسْلَامُ كُلَّ مَا كَانَ عَلَيْهِ الْعَرَبُ وَالْعَجَمُ مِنْ حِرْمَانِ النِّسَاءِ مِنَ التَّمْلِكِ أَوْ التَّضْيِيقِ عَلَيْهِنَّ فِي التَّصْرِيفِ بِمَا يَمْلِكُنَّ، وَاسْتِبْدَادِ أَزْوَاجِ الْمُتَزَوِّجَاتِ مِنْهُنَّ بِأَمْوَالِهِنَّ، فَأَثْبَتَ لَهُنَّ حَقَّ الْمَلِكِ بِأَنْوَاعِهِ وَالتَّصْرِيفِ بِأَنْوَاعِهِ الْمَشْرُوعَةِ، فَشَرَعَ الْوَصِيَّةَ وَالْإِثْرَ لَهُنَّ كَالرِّجَالِ، وَزَادَهُنَّ مَا فُرِضَ لَهُنَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنْ مَهْرِ الزَّوْجِيَّةِ وَالنَّفَقَةِ عَلَى الْمَرْأَةِ وَأَوْلَادِهَا وَإِنْ كَانَتْ غَنِيَّةً، وَأَعْطَاهُنَّ حَقَّ الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ وَالْإِجَارَةِ وَالْهَيْبَةَ وَالصَّدَقَةَ وَعَیْرَ ذَلِكَ. وَيَتَّبَعُ ذَلِكَ حُقُوقُ الدِّفَاعِ عَنِ مَالِهَا كالدِّفَاعِ عَنِ نَفْسِهَا بِالتَّقَاضِي وَعَیْرِهِ مِنَ الْأَعْمَالِ، وَأَنَّ الْمَرْأَةَ الْقُرْنِيسِيَّةَ لَا تَزَالُ إِلَى الْيَوْمِ مُقَيَّدَةً بِإِرَادَةِ زَوْجِهَا فِي جَمِيعِ التَّصْرِيفَاتِ الْمَالِيَّةِ، وَالْعُقُودِ الْقَضَائِيَّةِ))^(١).

وبعد أن فصل القول في موقف الشرائع والأمم الأخرى من المرأة خلص إلى القول :
 " وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ: أَنَّهَا مَا وَجَدَ دِينَ وَلَا شَرْعَ وَلَا قَانُونَ فِي أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ أُعْطِيَ النِّسَاءَ مَا أُعْطَاهُنَّ الْإِسْلَامُ مِنَ الْحُقُوقِ وَالْعِنَايَةِ وَالْكَرَامَةِ، أَفَلَيْسَ هَذَا كُلُّهُ مِنْ دَلَائِلِ كَوْنِهِ مِنْ وَحْيِ اللَّهِ الْعَلِيمِ الْحَكِيمِ الرَّحِيمِ لِمُحَمَّدٍ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الْمُبْعُوثِ فِي الْأُمَمِيِّينَ؟ بَلَى وَأَنَا عَنْ ذَلِكَ مِنَ الشَّاهِدِينَ الْمُبْرَهِنِينَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ " ^(٢).

وعند تفسير قوله (وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَّغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ

(١) رضا، مُجَدِّدٌ رَشِيدٌ، تَفْسِيرُ الْمَنَارِ، ج ١١، ص ٢٣٢.

(٢) رضا، مُجَدِّدٌ رَشِيدٌ، تَفْسِيرُ الْمَنَارِ، ج ١١، ص ٢٣٥.

ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) يتحدث سيد قطب عن مكانة المرأة قبل الإسلام وكيف أنها كانت مظلومة اجتماعياً ، ومسئولة الإرادة والحقوق ، ثم كيف أصبحت حقوقها بعد الإسلام ، يقول سيد قطب :

" ولقد كانت المرأة في الجاهلية تلاقى من العنت ما يتفق وغلظ الجاهلية وانحرافها. كانت تلقى هذا العنت طفلة توأد في بعض الأحيان، أو تعيش في هون ومشقة وإذلال! وكانت تلقاه زوجة هي قطعة من المتاع للرجل، أعلى منها الناقة والفرس وأعز! وكانت تلقاه مطلقة. تعضل فتمنع من الزواج حتى يسمح مطلقها وبأذن! أو يعضلها أهلها دون العودة إلى مطلقها، إن أرادا أن يتراجعا.. وكانت النظرة إليها بصفة عامة نظرة هابطة زرية شأنها في هذا شأن سائر الجاهليات السائدة في الأرض في ذلك الأوان. ثم جاء الإسلام ، جاء ينسم على حياة المرأة هذه النسومات الرخية التي نرى هنا نماذج منها. وجاء يرفع النظرة إليها فيقرر أنها والرجل نفس واحدة من خلقة بارئها.. وجاء يرتفع بالعلاقات الزوجية إلى مرتبة العبادة عند الإحسان فيها.. هذا ولم تطلب المرأة شيئاً من هذا ولا كانت تعرفه. ولم يطلب الرجل شيئاً من هذا ولا كان يتصوره. إنما هي الكرامة التي أفاضها الله من رحمته للجنسين جميعاً، على الحياة الإنسانية جميعاً. (وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرَخُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ. وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لِّتَعْتَدُوا) . والمقصود ببلوغ الأجل هنا هو قرب انتهاء العدة التي قررها في آية سابقة. فإذا قرب الأجل فإما رجعة على نية الإصلاح- والمعاملة بالمعروف- وهذا هو الإمساك بالمعروف.. وإما ترك الأجل يمضي فتبين الزوجة- وهذا هو التسريح بإحسان، بدون إيذاء ولا طلب فدية من الزوجة وبدون عضل لها عن الزواج بمن تشاء . (وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لِّتَعْتَدُوا) وذلك كالذي روي عن الأنصاري الذي قال لامرأته: والله لا أويك ولا أفارقك! فهذا هو الإمساك بغير إحسان. إمساك الضرر الذي لا ترضاه سماحة الإسلام. وهو الإمساك الذي تكرر النهي عنه في هذا السياق لأنه فيما يبدو كان شائعاً في البيئة العربية: ويمكن أن يشيع في أية بيئة لم يهدبها الإسلام، ولم يرفعها الإيمان. وهنا يستجيش القرآن أنبل المشاعر كما يستجيش عاطفة الحياء من الله، وشعور الخوف منه في آن. ويحشد هذه المؤثرات كلها ليخلص النفوس من أوضاع الجاهلية وآثارها ويرتفع بها إلى

المستوى الكريم الذي يأخذ بيدها إليه ... إن الذي يمسك المطلقة ضرراً واعتداء يظلم نفسه. فهي أخته. من نفسه. فإذا ظلمها فقد ظلم نفسه. وهو يظلم نفسه بإيرادها مورد المعصية، والجموح بها عن طريق الطاعة.. وهذه هي اللمسة الأولى. وآيات الله التي بينها في العشرة والطلاق واضحة مستقيمة جادة، تقصد إلى تنظيم هذه الحياة وإقامتها على الجد والصدق فإذا هو استغلها في الحاق الإضرار والأذى بالمرأة، متلاعباً بالرخص التي جعلها الله متنفساً وصمام أمن، واستخدم حق الرجعة الذي جعله الله فرصة لاستعادة الحياة الزوجية وإصلاحها، في إمساك المرأة لإيذائها وإشقتها.. إذا فعل شيئاً من هذا فقد اتخذ آيات الله هزواً- وذلك كالذي نراه في مجتمعنا الجاهلي الذي يدعى الإسلام في هذه الأيام، من استخدام الرخص الفقهية وسيلة للتحايل والإيذاء والفساد. ومن استخدام حق الطلاق ذاته أسوأ استخدام- وويل لمن يستهزيء بآيات الله دون حياء من الله" (١).

هذه أهم القضايا التي عالجها المفسرون الاجتماعيون في تفاسيرهم ، عرفنا نموذجاً منها ، وما على القارئ الكريم إلا أن يعود إلى تلك التفاسير ، ليقف بنفسه على الجهود العظيمة التي بذلوها في سبيل إصلاح الفرد والمجتمع ، وما أحوجنا اليوم إلى أن نحتدي بمدايات القرآن الكريم في مجال الإصلاح الاجتماعي على جميع المستويات .

(١) قطب ، سيد ، في ظلال القرآن ، ج ١ ، ص ٢٥١-٢٥٢ .

الخاتمة

أختم بحثي (الاتجاه الاجتماعي في التفسير في العصر الحديث) بأهم النتائج التي توصلت إليها ، وهي :

١- تعددت اتجاهات التفسير في العصر الحديث ، والذي يبدأ بنهاية القرن التاسع عشر الميلادي ، وبداية القرن العشرين ، ولعلّ أسرع هذه الاتجاهات ظهوراً وانتشاراً هو (الاتجاه الاجتماعي في التفسير) كونه يعنى بالقضايا المتجددة ، التي تمسّ المجتمع .

٢- لم يتفق الباحثون المعاصرون على وضع مفهوم دقيق لهذا الاتجاه ، بل إنني وجدت تبايناً عندهم في الاصطلاح على هذا الاتجاه . واختلافهم في هذه المصطلحات أدى إلى اختلافهم في تحديد التفاسير التي تمثله ، وسبب هذا الاختلاف يعود إلى اختلافهم في المنظار الذي نظروا إليه من خلاله .

٣- يمكن تعريف (الاتجاه الاجتماعي في التفسير) بأنه : الهدف الذي يتجه إليه المفسرون في تفاسيرهم ، وهو إصلاح المجتمع في بُنيته ونُظمه وعلاقاته ، للوقوف على مظاهر الحضارة ومعايير الأخلاق من خلال نصوص القرآن الكريم وهدايته وإعجازه .

٤- كانت نشأة الاتجاه الاجتماعي في التفسير مع نشأة مدرسة المنار في مصر في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي ، بل إن مدرسة المنار تُعدّ المؤسسة الأولى لهذا الاتجاه ، ممثلة بإمامها الشيخ مُجّد عبده ، وتلميذه الشيخ مُجّد رشيد رضا ، ثم ظهر من المفسرين المعاصرين من اهتم بهذا الاتجاه في تفاسيرهم ، ومن أشهرهم : الشيخ أحمد مصطفى المراغي ، والشيخ مُجّد فريد وجدي ، والشيخ محمود شلتوت ، والشيخ سيد قطب ، رحمهم الله تعالى .

٥- من أبرز دواعي ظهور الاتجاه الاجتماعي في التفسير في العصر الحديث : الهجمة الشرسة من أعداء الإسلام على الأمة ، والتردي الاجتماعي والأخلاقي والتعليمي للبلاد الإسلامية بعد الاستعمار ، وظهور دعاوى تحرير المرأة ، وظهور بوادر النهضة الغربية .

٦- كان تركيز هجمة الأعداء على مصر ، لأن مصر كانت مرشحة لزعامة العالم الإسلامي ، خاصة بعد سقوط الدولة العثمانية ، فإذا تم لها إفسادها سهّل عليهم السيطرة على بقية العالم الإسلامي .

٧- من أهم القضايا الكبرى التي تناولها المفسرون المعاصرون في التفسير الاجتماعي بالبحث والدراسة ، وأفاضوا فيها الكلام ، وأقاموا تفاسيرهم عليها ، هي قضايا الحرية ، والتحذير من البدع والعقائد الفاسدة ، والاهتمام بمشكلات السياسة والحكم ، وبيان السنن الأخلاقية ، والاقتصاد ، والقضايا المتعلقة بالمرأة .

٨- كشفت المدرسة الاجتماعية في التفسير عن بلاغة القرآن الكريم وإعجازه ، وبيّنت ما فيه من سنن كونية ، ونظم اجتماعية ، وعالجت مشكلات المجتمع ، وواكبت كل ما يستجد من القضايا ، بما أرشد إليه القرآن الكريم من تعاليم إنسانية ، وهدايات ربانية ، ووفقت بين القرآن والحضارة الغربية ، بما لا يتعارض مع هداية القرآن ، وردّت الشبهات والمطاعن التي وجهها الأعداء للقرآن الكريم ، وأظهرت للعالم أن القرآن صالح لكل زمان ومكان ، يمكن لكل أمة أن تتلمّس هدايتها ومقومات حضارتها الراقية من دستورها الأول ، وهو القرآن الكريم ، كل ذلك بأسلوب أدبي بديع ، يأخذ العقول ، ويأسر القلوب .

في نهاية هذا البحث ، أسأل الله العظيم أن يتقبّل منّي هذا العمل ، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم ، وأن يقبل عثرتي ، ويغفر زلّتي ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، وصلّى اللهم وسلّم على نبينا محمّد ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

قائمة المراجع والمصادر

١- أرسلان ، شكيب ، لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدّم غيرهم ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، الطبعة الثانية .

- ٢- جولد زيهير ، مذاهب التفسير الإسلامي ، ترجمة عبد الحليم النجار ، مكتبة الخانجي ، القاهرة
- ٣- حسن ، ملحم ، مبادئ علم الاجتماع ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر .
- ٤- الخالدي ، صلاح عبد الفتاح ، تعريف الدارسين بمناهج المفسرين ، دار القلم ، دمشق ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٢ م .
- ٥- خرمشاهي ، بهاء الدين ، التفسير والتفاسير الحديثة ، دار الروضة ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٩١ م .
- ٦- الخشاب ، مصطفى ، علم الاجتماع ومدارسه ، الطبعة الخامسة ، ١٩٩٣ م .
- ٧- دالية ، خضر إسماعيل ، الإصلاح الاجتماعي في تفسير المنار ، رسالة ماجستير ، الجامعة الأردنية ، ١٩٨٨ م
- ٨- الذهبي ، مُجَّد حسين ، التفسير والمفسرون ، مكتبة وهبة ، القاهرة .
- ٩- رضا ، مُجَّد رشيد بن علي رضا بن مُجَّد شمس الدين بن مُجَّد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني (ت ١٣٥٤هـ) ، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٠ م .
- ١٠- الرومي ، فهد بن عبد الرحمن بن سليمان ، اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر ، طبع بإذن رئاسة إدارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد في المملكة العربية السعودية برقم ٩٥١ / ٥ وتاريخ ١٤٠٦/٨/٥ ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٧ هـ .
- ١١- الرومي ، فهد بن عبد الرحمن بن سليمان ، بحوث في أصول التفسير ، مكتبة التوبة ، الرياض ، الطبعة الخامسة ، ١٤٢٠ هـ .
- ١٢- الرومي ، فهد بن عبد الرحمن بن سليمان ، منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير ، مؤسسة الرسالة ، الرياض ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٣ هـ .
- ١٣- الزرقاني ، مُجَّد عبد العظيم الزُّرقاني (ت ١٣٦٧هـ) ، مناهل العرفان في علوم القرآن ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ، دار الفكر ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٩٨٨ م .

- ١٤- الزركلي ، خير الدين بن محمود بن مُحمَّد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي (ت ١٣٩٦هـ) ، الأعلام ، دار العلم للملايين ، الطبعة الخامسة عشر ، ٢٠٠٢ م .
- ١٥- زمامة ، عبد القادر وآخرون ، معجم تفاسير القرآن الكريم ، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ، ١٩٩٧ م .
- ١٦- الشرقاوي ، عفت ، قضايا إنسانية في أعمال المفسرين ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، ١٩٨٠ م .
- ١٧- شريف ، مُحمَّد ، اتجاهات التجديد في تفسير القرآن في مصر ، دار التراث ، القاهرة
- ١٨- شريف ، مُحمَّد ، بحوث في تفسير القرآن ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٦ م .
- ١٩- شلتوت ، محمود ، تفسير القرآن الكريم ، دار القلم ، القاهرة ، الطبعة الثانية .
- ٢٠- عباس ، فضل حسن ، المفسرون ومدارسهم ومناهجهم ، دار النفائس ، الأردن ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٧ م
- ٢١- كحالة ، عمر بن رضا بن مُحمَّد راغب بن عبد الغني كحالة الدمشقي (ت ١٤٠٨هـ) ، معجم المؤلفين ، مكتبة المثنى ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .
- ٢٢- المحتسب ، عبد المجيد ، اتجاهات التفسير في العصر الراهن ، دار الفكر ، الطبعة الأولى ١٩٧٣ ، م .
- ٢٣- المراغي ، أحمد مصطفى (ت ١٣٧١هـ) ، تفسير القرآن ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ، الطبعة الأولى ، ١٣٦٥ هـ .
- ٢٤- وجدي ، مُحمَّد فريد ، القرآن يضع أصول علم الاجتماع ، مجلة الأزهر ، مجلد ٤ ، عدد ٧ ، شهر رجب ، ١٩٣٣ م .
- ٢٥- وجدي ، مُحمَّد فريد ، المصحف المفسر ، مكتبة وهبة للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٧ م .